الفصل الرابـع

تصنيف مناهج البحث التربوى و النفسى والاجتماعى حسب أهداف الدراسة

مقدمة

أولًا : المنهج الوصفى.

ثانيًا : المنهج التفسيرى.

ثالثًا : المنهج التحكمى.

كلمة ختاميـة.

مقدمة:

يعتبر الوصف أول هدفٍ من أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى فى العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية. ولذلك تعتبر البحوث الوصفية أسهل من حيث فهمها واستيعابها إذا حصل الفرد أولًا على بعض المعلومات عن الخطوات المختلفة المتضمنة فى بحثٍ من البحوث إلى جانب مختلف الوسائل المستخدمة فى جمع البيانات والتعبير عنها. وما إلى ذلك.

وعلى الرغم من أن هدف الوصف هو أبسط أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى؛ إلا أنه أكثرها أهمية، فبدونه ـ أى بدون الوصف ـ تعجز الدراسات العلمية عن التقدم إلى الهدفين التاليين، أعنى التفسير والتحكم.

والهدف الثانى من أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى فى العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية، هو التعمق فيما وراء الظواهر التى تقبل الملاحظة، والبحث عن أسباب حدوثها، والتفسير يساعد الباحث على أن يضع تعليلًا للظواهر موضوع البحث، وذلك من خلال الإجابة عن سؤال، لماذا تحدث الظاهرة؟ بينما الوصف ـ كما سبقت الإشارة ـ يجيب عن السؤالين: ماذا يحدث؟، وكيف يحدث؟.

والهدف الثالث من أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى فى العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية هو السعى نحو التحكم فيه حتى يمكن ضبطه وتوجيهه والتنبؤ به. ولا يمكن أن يصل العلم إلى تحقيق هذا الهدف الثالث إلا بعد وصفٍ جيد لظواهره وتفسير دقيق صحيح لها من خلال تحديد العوامل المؤثرة فيها.

وحول أهداف العلم تدور صفحات هذا الفصل، فيبدأ المؤلف بالمنهج الوصفى

الذى يحقق الهدف الأول للعلم، ثم المنهج التفسيرى الذى يحقق الهدف الثانى للعلم ثم المنهج التحكمى الذى يحقق الهدف الثالث للعلم .

أولاً : المنهج الوصفى Descriptive Method :

(١) تمهيد :

من اللازم أن تتوفر لدى الباحثين أوصاف دقيقة للظاهرات التى يدرسونها قبل أن يحرزوا تقدمًا كبيرًا فى حل المشكلات. ولذا؛ فإن التطورات الأولى فى البحوث التربوية، كما فى سائر الميادين، قد حدثت فى ميدان الوصف. فلكى تحل المشكلات التى تتعلق بالأطفال، أو الإدارة المدرسية، أو المنهج، أو تدريس الرياضيات؛ يوجه الباحثون الذين يستخدمون منهج البحث الوصفى هذه الأسئلة المبدئية: ماذا يوجد؟ ما هو الوضع الحالى لهذه الظاهرات؟ ويعتبر تحديد طبيعة الظروف والممارسات، والاتجاهات السائدة ـ أى البحث عن أوصاف دقيقة للأنشطة، والأشياء، والعمليات، والأشخاص ـ هو هدفهم. فهم يصورون الوضع الراهن، ويحددون فى بعض الأحيان العلاقات التى توجد بين الظاهرات أو الاتجاهات التى يبدو أنها فى طريق النمو والتطور. ومن حين لآخر، يحاولون وضع تنبؤات عن الأحداث المقبلة.(فان دالين، ١٩٨٥: ٣٣٥).

وتذكر كتابات عديدة متخصصة فى مناهج البحث التربوى أن المنهج الوصفى من أكثر مناهج البحث فى العلوم التربوية والنفسية والاجتماعية ملاءمة للواقع التربوى، والواقع الاجتماعى. وأنه الخطوة الأولى نحو تحقيق الفهم الصحيح لهذا الواقع؛ ذلك أن من خلال المنهج الوصفى نتمكن من الإحاطة بكل أبعاد هذا الواقع محددةً على خريطة تصف وتصور ـ بكل دقة ـ كافة ظواهره وسماته، وحين نصل إلى هذه الخريطة نكون قد وضعنا الأساس المتين لأية محاولة تستهدف تطوير، أو تغيير هذا الواقع من أجل تحقيق أهداف مرغوبة ومطلوبة .

كما يمكن القول أن أهمية البحث الوصفى ـ كما يرى الكثير من المتخصصين فى مجال مناهج البحث ـ تكمن فى أنه الأسلوب الوحيد الممكن لدراسة الكثير من

المجالات التربوية والنفسية. فعلى سبيل المثال إذا أردنا أن ندرس مشكلات تتعلق بسلوك الأطفال المضطربين سلوكيًا وانفعاليًا، فإننا لن نتمكن من إجراء تجارب فى هذا الموضوع، ومن هنا نجد أن المنهج الوصفى بخطواته التى سوف نشير إليها بالتفصيل، هى الوسيلة المناسبة التى لا يمكن الاستغناء عنها لدراسة هذه السلوكيات وغيرها. ولذلك، فإن البحث باستخدام المنهج الوصفى من أكثر أساليب البحث شيوعًا بين جمهور الباحثين .

أضف إلى ما سبق أن طبيعة البحوث الوصفية تُعتبر أسهل من حيث فهمها واستيعابها إذا حصل الفرد أولًا على بعض المعلومات عن الخطوات المختلفة المتضمنة فى بحثٍ من البحوث إلى جانب مختلف الوسائل المستخدمة فى جمع البيانات والتعبير عنها، والفئات العامة التى قد تصنف تحتها الدراسات .

(٢) تعريف منهج البحث الوصفى :

يعرِّف " حسن عبد العال "(٢٠٠٤: ١٦٦) البحث الوصفى بأنه " استقصاء ينصب على ظاهرةٍ من الظواهر كما هى قائمة فى الحاضر، بقصد تشخيصها وكشف جوانبها، وتحديد العلاقات بين عناصرها وبينها وبين ظواهر أخرى ". ويشير إلى أن الأسلوب الوصفى فى البحث " أحد أشكال التحليل والتفسير العلمى المنظم لوصف ظاهرة أو مشكلة محددة، وتصويرها كميًا عن طريق جمع بيانات ومعلومات مقننة عن الظاهرة، أو المشكلة، وتصنيفها وتحليلها وإخضاعها للدراسة الدقيقة."

(٣) أهداف المنهج الوصفى :

يهدف البحث الوصفى أساسًا إلى دراسة الظروف أو الظواهر أو المواقف أو العلاقات كما هى موجودة، والحصول على وصف دقيق لها يساعد على تفسير المشكلات التى تتضمنها أو الإجابة عن الأسئلة الخاصة بها. ومن ثم تتضح أهمية البحوث الوصفية فى دراسة الظواهر السلوكية المختلفة التى يهمنا فى أحوال كثيرة التعرُّف عليها كما هى موجودة والحصول على البيانات الخاصة بها التى تساعد على توضيحها ودراستها دراسة علمية دقيقة .

وهنا تتعين الإشارة إلى أنه لا يجب أن نفهم من ذلك أن مهمة البحث الوصفى هى مجرد تجميع البيانات والمعلومات عن الظواهر أو الموضوعات التى يتعرض لدراستها، وإنما مهمة البحث الوصفى تمتد إلى ما هو أبعد من ذلك، حيث يهدف إلى توضيح العلاقات بين هذه الظواهر وتحليلها وتفسيرها .

إذًا يسعى المنهج الوصفى فى البحث إلى فهم الحاضر من أجل توجيه المستقبل؛ حيث يوفر هذا المنهج بيانات وحقائق واقعية، ويعتبر ذلك خطوات تمهيدية لتحولات تعتبر ضرورية نحو الأفضل. ويمكن إجمال أهداف منهج البحث الوصفى على النحو التالى :

(١) جمع بيانات حقيقية ومفصلة لظاهرة أو مشكلة موجودة فعلًا لدى مجتمع معين .

(٢) تحديد المشكلات الموجودة وتوضيحها .

(٣) إجراء مقارنات لبعض الظواهر أو المشكلات وتقويمها، وإيجاد العلاقات بين تلك الظواهر أو المشكلات .

(٤) تحديد ما يفعله الأفراد فى مشكلةٍ ما أو ظاهرة ما، والاستفادة من آرائهم وخبراتهم فى وضع تصور وخطط مستقبلية واتخاذ القرارات المناسبة لمواقف مشابهة مستقبلًا.

وفى جملة واحدة يمكن تلخيص هدف المنهج الوصفى فى أنه المنهج الذى يهتم بوصف الظاهرة دون التعرض للأسباب والنتائج التى تترتب عليها .

(٤) اعتبارات عامة يتعين مراعاتها فى البحوث والدراسات الوصفية :

هناك عدة تساؤلات تحتاج إلى الإجابة عنها عند استخدام المنهج الوصفى، وتعد الإجابات عن تلك التساؤلات بمثابة اعتبارات عامة فى هذا الصدد:

الأول: هل تصميم البحث كافٍ فى مجاله، وعمقه، ودقته، لكى يحصل على البيانات المعينة اللازمة لاختبار صدق الفرض أو الفروض، أو الإجابة عن التساؤل أو التساؤلات؟ أم أنه سيؤدى إلى جمع إرتجالى سطحى وغير مميز للبيانات؟

الثانى: هل أخذ الباحث الإحتياطات اللازمة الممكنة، لتوفير شروط الملاحظة، وصياغة الفروض أو الأسئلة، وتصميم بطاقات الملاحظة، وتسجيل البيانات، وتحقق من ثبات الأدلة، ومصادر المادة، حتى يتم تجنب جمع البيانات والمعلومات التى تنتج عن الأخطاء الإدراكية، وعيوب الذاكرة، والخداع المقصود، والتحيز اللاشعورى؟

الثالث: هل تم تحديد البنود المعينة التى يلاحظها الملاحظ حينما يصف شرطًا، أو حادثة، أو عملية تحديدًا واضحًا، هل تم استخدام طريقة موحدة لتسجيل المعلومات الدقيقة؟

الرابع: هل المعايير المستخدمة فى تصنيف البيانات، ومقارنتها، والتعبير الكمى عنها صحيحة؟

الخامس: هل الفئات المستخدمة فى تصنيف البيانات واضحة ومناسبة، وكفيلة بكشف أوجه التشابه، أو أوجه الاختلاف، أو العلاقات؟

السادس: هل تعكس الدراسة الوصفية تحليلًا سطحيًا للحالات والظروف الظاهرية؟ أم أنها تتعمق فى العلاقات المتبادلة أو العلاقات السببية؟(فان دالين، ١٩٨٥ ك ٦٤١ ـ ٦٤٢).

(٥) خطوات المنهج الوصفى :

يخضع المنهج الوصفى، تمامًا مثل المنهج التجريبى، لخطوات المنهج العلمى، بمعنى أنه يبدأ بمشكلة معينة يشعر بها الباحث ويجد لها أهمية، ومن ثم يحاول البحث عن الإجابة عنها أو إيجاد تفسير لها. وهو فى سبيل ذلك قد يفترض عددًا من الفروض أو يثير عددًا من التساؤلات حسب درجة تحديده للمشكلة وحسب البيانات التى جمعها حولها، ثم يحاول إثبات صحة هذه الفروض التى افترضها أو الإجابة عن التساؤلات التى أثارها، وذلك بجمع البيانات الخاصة بها مستخدمًا فى ذلك الأدوات المناسبة والتى سيأتى الحديث عنها بشئ من التفصيل بعد الانتهاء من عرض مناهج البحث. وتطبق هذه الأدوات على عينة من الأفراد تمثل المجتمع

الأصلى للظاهرة موضوع الدراسة. ثم يخضع الباحث النتائج التى توصل إليها للتحليل الذى يساعد على توضيحها وتفسيرها. وكلما كانت النتائج رقمية محددة، ساعد ذلك على تحليلها باستخدام الأساليب الإحصائية المناسبة، ساعد ذلك على استخلاص التفسيرات بصورة أدق(إبراهيم وجيه، ١٩٨٠: ١٢٨).وقد اختلف الباحثون فى عدد خطوات البحث الوصفى فمنهم من ذكر أنها تسع خطوات ومنهم من ذكر أنها عشر خطوات ومنهم من ذكر أنها أربعة .

فعلى سبيل المثال يذكر " فان دالين "(١٩٨٥: ٣٣٦) فى معرض حديثه عن الخطوات المتبعة فى البحث الوصفى، أن الباحثين فى الدراسات الوصفية لا يقدمون مجرد بيانات واعتقادات خاصة تستند على ملاحظات عرضية أو سطحية. ولكن كما هو الحال فى أى بحثٍ من البحوث، يقومون بعناية :

(١) بفحص الموقف المشكل؛

(٢) تحديد مشكلتهم وتقرير فروضهم؛

(٣) تدوين الافتراضات أو المسلمات التى تستند عليها فروضهم وإجراءاتهم .

(٤) اختيار المفحوصين المناسبين ومصادر المواد .

(٥) اختيار أو إعداد الطرق الفنية لجمع البيانات .

(٦) إعداد فئات لتصنيف البيانات غير الغامضة والملائمة لهدف الدراسة، وقادرة على استخراج المشابهات أو الاختلافات، أو العلاقات المهمة .

(٧) التحقق من صدق أدوات جمع البيانات .

(٨) القيام بملاحظات موضوعية منتقاة بطريقة منظمة، ومميزة بشكل دقيق .

(٩) وصف نتائجهم، وتحليلها، وتفسيرها فى عبارات واضحة محددة .

ويسعى الباحثون إلى أكثر من مجرد الوصف: فهم ليسوا ـ أو ينبغى ألا يكونوا ـ مجرد مبوبين أو مجدولين. فالباحثون الأكفاء يجمعون الأدلة على أساس فروض معينة أو نظرية من النظريات، ويقومون بتبويب البيانات وتلخيصها بعناية؛ ثم يحللونها بعمق فى محاولة لاستخلاص تعميمات ذات مغزى تؤدى إلى تقدم المعرفة .

وهناك من الباحثين من يعرض عشر خطوات يسير فيها البحث الوصفى باعتباره أحد مناهج البحث العلمى، ويتبع خطوات الطريقة العلمية وذلك على النحو التالى :

الأولى: الشعور بمشكلة البحث وجمع بيانات ومعلومات تساعد على تحديدها .

الثانية: تحديد المشكلة التى يريد الباحث دراستها وصياغتها .

الثالثة: وضع الفروض كحلول مبدئية للمشكلة، يتجه بموجبها الباحث للوصول إلى البديل أو الحل المطلوب .

الرابعة: وضع الفرض أو الفروض أو(الافتراضات والمسلمات) التى ينطلق منها الباحث لاستكمال إجراءات دراسته .

الخامسة: اختيار العينة التى سيجرى عليها دراسته، مع توضيح حجم العينة، وأسلوب اختيارها .

السادسة: اختيار الباحث لأدوات دراسته التى سيستخدمها فى الحصول على المعلومات؛ كالملاحظة، أو الاستبيان، أو المقابلة، أو تطبيق اختبارات ومقاييس، وذلك فى ضوء طبيعة مشكلة البحث، وفروضه، ثم يقوم بتقنين هذه الأدوات، وحساب صدقها وثباتها .

السابعة: القيام بجمع البيانات والمعلومات المطلوبة بطريقة دقيقة ومنظمة .

الثامنة: الوصول إلى النتائج وتنظيمها وتصنيفها .

التاسعة: تحليل النتائج وتفسيرها، واستخلاص التعميمات والاستنتاجات منها .

العاشرة: صياغة توصيات البحث، والبحوث المستقبلية المقترحة .

(حسن عبد العال، ٢٠٠٤: ١٧٥ ـ ١٧٦).

وفى الفقرات التالية عرض لخطوات المنهج الوصفى :

الخطوة الأولى: تحديد المشكلة :

إن الظواهر السلوكية التى يتعرض لها البحث الوصفى بالدراسة والاستقصاء غالبًا ما تكون ظواهر متشابكة كثيرة العوامل، أو ترجع إلى العديد من الأسباب،

ويكون القصد من البحث فيما يتعلق بها هو تحديد هذه العوامل أو التعرف على هذه الأسباب ومن الصعب فى أغلب الأحوال أن يحصر الباحث جميع العوامل أو تحديد كافة الأسباب التى ترجع إليها الظاهرة السلوكية المعينة موضوع الدراسة. ومن ثم يصبح على الباحث أن يلتزم بأسلوب معين فى العمل لكى يحدد عن طريقه أكثر العوامل التى تتعلق بالظاهرة المعينة ارتباطًا بها، أو أكثر الأسباب تأثيرًا فيها وكلما تحددت مشكلة من المجتمع الأصل[1] واتضحت أمام الباحث أركانها، كان من السهل عليه تحديد العوامل أو الأسباب التى ترتبط بها، وتحددت بالتالى أساليب العمل التى يقوم بها فى دراسته .

وبالإضافة إلى كثرة العوامل والأسباب فى الظواهر التى تتعرض لها البحوث الوصفية، فإن هذه الظواهر ترتبط عادة بمجتمعات كبيرة العدد، ومن ثم يصبح على الباحث أن يختار عينة منها يجرى عليها أبحاثه أو يجمع عنها بياناته وأن يراعى تمثيل هذه العينة للمجتمع الأصلى تمثيلًا كافيًا يعبر عن كل الخصائص التى يهدف إلى إبرازها والتى ترتبط ارتباطًا وثيقًا بمشكلة البحث، وهذه الناحية بدورها يتعين أن تكون واضحة أمام الباحث وهو يختار مشكلته ويحددها فى البحوث الوصفية.

الخطوة الثانية: صياغة الفروض :

الخطوة الثانية من خطوات المنهج الوصفى بعد تحديد المشكلة هى صياغة الفروض، ومن المعروف أن الفرض العلمى يقوم على أساس من المعلومات الكافية عن الموضوع الذى يتعرض له الباحث بالدراسة. وموضوعات الدراسة فى البحوث الوصفية عادةً ما تكون مجهولة، ترمى الدراسة إلى استكشافها والتعرف على أبعادها المختلفة والعوامل التى تؤثر فيها، بمعنى أن هذه الأبعاد وتلك العوامل لا تكون محددة منذ البداية، ولا تكفى الحقائق المعروفة عنها من إقامة فروض بالنسبة لها، عكس البحث التجريبى الذى يعمد أولًا إلى التحديد الواضح للعوامل أو المتغيرات التى تؤثر فى الظاهرة التى يتعرض لدراستها، وعزل المتغير التجريبى وحده، والعمل على تغييره أو تعديله حسبما تقتضى أغراض الدراسة مع مراعاة تثبيت المتغيرات أو العوامل الأخرى لتبقى بدون تغيير أثناء الدراسة، وهذا معناه

أن هذه المتغيرات أو العوامل يجب أن تكون معروفة ومحددة من الأصل فى البحث التجريبى .

ولذلك كثيرًا ما نلجأ فى البحوث الوصفية بدلًا من افتراض الفروض، إلى إثارة عدد من التساؤلات حول موضوع الدراسة، وتقوم هذه التساؤلات على أساس النواحى التى تهم الباحث أكثر من غيرها، والتى ترتبط أكثر بموضوع الدراسة، والتى يؤدى إبرازها والتعرف عليها إلى وضوح هذا الموضوع والتعرف على خصائصه، ويصبح الغرض من البحث هو الإجابة عن هذه التساؤلات، وجمع البيانات التى ترد عليها، ثم تحليل هذه البيانات وتفسيرها لتعطى فى النهاية صورة متكاملة عن موضوع الدراسة(إبراهيم وجيه، ١٩٨٠: ١٣٠).وهذا لا ينفى بطبيعة الحال إمكانية افتراض فروض فى البحوث الوصفية إذا كانت هناك بيانات أو وقائع تكفى لإقامة هذه الفروض، أو إذا كانت هناك حالات أو مواقف مشابهة وصلت البحوث السابقة إلى نتائج محددة بالنسبة لها ويمكن أن تقام الفروض على أساسها .

الخطوة الثالثة: تحقيق الفروض أو الرد على التساؤلات :

بعد افتراض فروض البحث أو تحديد التساؤلات التى يهدف إلى الإجابة عنها، تأتى مرحلة القيام بالإجراءات الخاصة بها، وتتضمن هذه الإجراءات تحديد حجم العينة التى يحاول البحث استقصاء معلوماته عنها أو الحصول على الإجابات منها أو وصفها حسب طبيعة البحث وأهدافه. وتشمل كذلك الأدوات التى يستخدمها الباحث للوصول إلى غايته، والخطوات التى يتبعها، وأيضًا المناهج الإحصائية التى يستخدمها لتحليل البيانات التى يحصل عليها حتى يتيسر له تفسيرها .

وفيما يختص بالعينة سبق أن أوضحنا أن تحديدها هام للغاية فى البحوث الوصفية، تلك البحوث التى لا يستطيع الباحث فيها عادةً أن يبحث الظاهرة فى المجتمع الأصلى كله ومن ثم يعتمد على عينة منه، ولذلك يتعين أن تتوفر فى هذه العينة جميع خصائص ومواصفات المجتمع الأصلى حتى يمكن تعميم النتائج بعد ذلك، وكلما كان حجم العينة كبيرًا، وكانت العينة أكثر تمثيلًا، كان من الممكن تعميم النتائج للاستفادة منها .

أما الأدوات، فإن البحوث الوصفية تعتمد على كافة الأدوات التى تساعد على استقصاء الظواهر أو الإلمام بالموضوعات التى تتعرض لدراستها، وتختلف أنواع الأدوات باختلاف موضوع الدراسة، فإذا كانت الغاية هى دراسة عينة من الأفراد والتعرف على سمات شخصيتهم أو قدراتهم أو ميولهم أو اتجاهاتهم فإن الاختبارات تكون هى الوسيلة المناسبة، وإذا كان الغرض هو معرفة آرائهم أو جمع بيانات منهم عن موضوع ما كان الاستبيان أو المقابلة الشخصية هى الوسيلة لذلك. ويتحدد دور كل منهما حسبما يراه الباحث أنسب لموضوع دراسته، أو قد يعتمد الباحث على أكثر من وسيلة.. وهكذا. ويسفر استخدام هذه الأدوات عن نتائج محددة يصنفها الباحث ليحصل منها على إجابة عن تساؤلاته أو يحقق عن طريقها الفروض التى صاغها .

وغالبًا ما يعتمد الباحث فى تحليله للنتائج التى يصل إليها على المناهج الإحصائية التى تُعطى دليلًا محددًا عن توفر أو عدم توفر الخاصية أو الصفة المعينة التى يبحث عنها، أو وجود فروق أو عدم وجود فروق بين خصائص العينات التى يتعرض لها بالدراسة، أو دلالة الإجابات التى يتحصل عليها.. أو غير ذلك من النتائج التى يحصل عليها .

الخطوة الرابعة: تفسير النتائج :

بعد تحليل النتائج وتحديد درجة وجود الصفة أو دلالة الإجابة أو غير ذلك من النتائج التى يصل إليها الباحث يعمد إلى تفسيرها وذلك بالرجوع إلى طبيعة الظاهرة التى يدرسها وعينة الأفراد التى درس هذه الظاهرة من خلالها.. وكل ما يساعد على وصفها، وهو الغرض الأساسى من البحث الوصفى .

وعلى قدر نجاح الباحث فى تفسير نتائجه على قدر ما تكون الاستفادة من هذه النتائج، وكلما ساعدت هذه التفسيرات على الإلمام بكافة خصائص الظاهرة وأبعادها والعوامل المؤثرة فيها تيسر للباحث أن يضع تفسيرًا متكاملًا للظاهرة التى يدرسها، أو بمعنى آخر نظرية خاصة بها.

(٦) الأسس التى تقوم عليها البحوث الوصفية :

فى ضوء ما عرضناه من خطوات للبحث الوصفى، يمكن القول أن البحوث والدراسات التى تستخدم منهج البحث الوصفى ترتكز على ستة أسس تتواتر الإشارة إليها فى كتب مناهج البحث على النحو التالى :

الأول: أنه يمكن الاستعانة فى البحوث الوصفية بمختلف الأدوات المستخدمة للحصول على البيانات والمعلومات بشكل دقيق وواضح كإستخدام الملاحظة والمقابلة والاستبانات وتحليل الوثائق والسجلات، بل يمكن الجمع بين أكثر من أداة واحدة مثل المقابلة والملاحظة مثلاً .

الثانى: أن هناك اختلافًا فى مستويات التعمق فى البحوث والدراسات الوصفية. ذلك أن بعض الدراسات تكتفى بالوصف الكمى أو الوصف الكيفى لجوانب الظاهرة موضع الاهتمام دون دراسة الأسباب المؤدية أو العوامل السببية التى أفضت إلى حدوث الظاهرة على هذا النحو. فى حين قد تهتم دراسات وصفية أخرى بالتعرف على الأسباب المؤدية إلى حدوث الظاهرة، وما يمكن إجراؤه أو تغييره بحيث يؤدى إلى تعديل فى الظاهرة التى يخضعها الباحث للدراسة .

الثالث: أنه فى ضوء ما ورد فى الأساس الثانى يمكن القول أن البحوث والدراسات الوصفية سوف تتنوع من حيث مستويات تعمقها؛ وذلك على متصل يبدأ بمجرد جمع البيانات والمعلومات والإحصاء البسيط، أو الوصف البسيط للظاهرة وإلى أن يصل إلى تنظيم العلاقات بين هذه المعلومات، وانتهاءً بدراسة أثر عامل معين على عامل آخر .

الرابع: أن البحوث والدراسات الوصفية غالبًا ما تعتمد على اختيار عينات ممثلة للمجتمع الأصل الذى تتصدى لدراسة ظاهرة معينة فيه .

الخامس: أن البحوث والدراسات الوصفية لابد أن تحقق مستوى معين من التجريد Abstraction حتى يمكن تمييز سمات الظاهرة موضع البحث وخصائصها .

ومعروف أن التجريد مفهوم يعنى تمييز سمات وخصائص موقفٍ ما.

والظواهر فى المجالات التربوية والنفسية والاجتماعية ـ بوجه عام ـ تتسم بالتداخل وبالتعقيد الشديدين. الأمر الذى قد لا يتمكن معه الباحثون من ملاحظة كافة هذه الظواهر فى مختلف حالاتها الطبيعية، ولهذا فليس هناك من مفر من اللجوء إلى التجريد بمعنى عزل وانتقاء مظاهر معينة من " كل" عيانى كجزء من عملية تقويمه .

السادس: أن التعميم مطلب ضرورى فى البحوث والدراسات الوصفية؛ ذلك أنه إذا أمكن تصنيف الوقائع والأشياء والكائنات على أساس معيار مميز، أمكن استخلاص حكم أو أحكام تصدق على فئة معينة منها، والحكم التعلق بفئة يطلق عليه لفظ تعميم، وقد يكون الحكم شاملًا فيبدأ بكلمة " كل" أو " جميع" أو " لا يوجد "، وقد يكون الحكم جزئيًا فيبدأ بكلمة " بعض " أو " معظم ."

(٧) أنماط البحوث الوصفية :

لا يوجد اتفاق بين العلماء فى مناهج البحث حول كيفية تصنيف البحوث والدراسات الوصفية إلا أنه يمكن التعرف على ثلاثة أنماط شائعة من البحوث الوصفية، تتواتر الإشارة إليها فى الكتابات المتخصصة وذلك على النحو التالى :

النمط الاول: البحوث والدراسات المسحية :

حينما تبذل محاولات لحل المشكلات يقوم غالبًا أفراد من ميادين كثيرة ـ من الحكومة، والإعلام، والسياسة، والتربية ـ بالاضطلاع بدراسات مسحية. فيجمعون أوصافًا مفصلة عن الظواهر الموجودة بقصد استخدام البيانات لتأييد الظروف أو الممارسات الراهنة، أو لعمل تخطيطات أكثر ذكاءً بغية تحسين الظروف والعمليات الاجتماعية، أو الاقتصادية، أو التربوية .

وقد لا يكون هدف هؤلاء الأفراد مجرد كشف الوضع القائم، ولكن تحديد كفاءته أيضًا عن طريق مقارنته بمستويات؛ أو معايير أو محكات، تم اختيارها، أو إعدادها. فمثلًا، قد تقارن إجراءات الفحص الصحى " بأفضل الأساليب " كما تحددها السلطات، وقد تقارن درجات الأطفال فى القراءة بمعايير مستمدة من

مجموعات معينة، وقد يقوم باحثون، أيضًا، بمسح عن الطريقة التى بها حل أناس آخرون مشكلات مماثلة لكى يحصلوا على معلومات تساعدهم فى تحسين أوضاعهم الراهنة. ويجمع بعض الدارسين أنماط المعلومات الثلاثة جميعًا أى معلومات عن الوضع الراهن، ومقارنة الوضع بالمستويات، وأساليب ووسائل تحسين الوضع، إلا أن باحثين غيرهم يقصرون دراساتهم على نمط أو اثنين من هذه الأنماط الثلاثة .

وقد تكون الدراسات المسحية على نطاق ضيق، كما قد تكون على نطاق واسع، ذلك أنها قد تقتصر على دولة واحدة، أو منطقة واحدة، أو محافظة واحدة، أو النظام المدرسى فى مدينة من المدن، أو بعض الوحدات الأخرى، وقد تمتد جغرافيا لتشمل عدة بلاد. وقد تجمع البيانات المسحية من كل عضو من أعضاء العينة؛ أو من عينة منتقاة بدقة. وقد تختص البيانات التى يتم جمعها بعدد هائل من العوامل المتعلقة أو ذات الصلة، أو ببنود قليلة منتقاة، ويتوقف مدى الدراسة وعمقها بشكل أساسى ـ على طبيعة المشكلة .

ويعرف المسح Survey بأنه محاولة منظمة للحصول على معلومات من جمهور معين، أو عينة معينة، وذلك عن طريق استخدام استمارات البحث، أو المقابلات .

ويذكر كل من " فؤاد أبو حطب وآمال صادق "(١٩٩٦: ٦٥) أن المسح كما يستخدمانه له معنى محدد ـ هو أنه " دراسة لحاضر الظواهر العلمية " وهو بهذا المعنى؛ يجيب عن أحد أربعة أسئلة مهمة، أو عنها جميعًا، باستخدام الأدوات المناسبة لجمع البيانات :

الأول: ما هى طبيعة الظاهرة موضع البحث؟ وهذا السؤال ينتمى إلى المنهج الوصفى .

الثانى: ما هى العلاقات بين المكونات(المتغيرات) التى تتألف منها بنية الظاهرة موضع البحث، والتى تقترن معًا حسب مبدأ التلازم فى الاختلاف؟ وهذا السؤال ينتمى إلى المنهج الارتباطى .

الثالث: ما هى العلاقات بين المكونات(المتغيرات) التى تتألف منها الظاهرة،

ومتغيرات أخرى خارجية عنها، والتى تقترن معها حسب مبدأ التلازم فى الحدوث؟ وهذا السؤال ينتمى إلى المنهج شبه التجريبى .

الرابع: ما هى المتغيرات من خارج الظاهرة موضع البحث التى ترتبط بالمتغيرات داخلها بعلاقة سببية؟ وهذا السؤال ينتمى إلى المنهج التجريبى .

يمكن القول إذًا أن الوظيفة الأساسية للمسح هى توفير المعلومات حول موقف أو جماعة؛ ذلك أنه محاولة لجمع بيانات من أعضاء المجتمع الأصل، أو عينة منه؛ لكى نحدد الحالة الراهنة لهذا المجتمع، أو لهذه العينة بالنسبة لمتغير أو أكثر. والنمط الشائع هو الدراسة المسحية بالعينة؛ وفى هذه الدراسة يستنبط الباحث معلومات عن المجتمع الأصل كله، وذلك بالاعتماد على استجابات أفراد العينة المأخوذة من ذلك المجتمع .

أهمية البحوث والدراسات المسحية :

لا شك فى أن للدراسات المسحية أهمية كبيرة. ويمكن تحديد هذه الأهمية فى النقاط الأربع التالية :

الأولى: أن للبحوث والدراسات المسحية فائدة نظرية(على المستوى النظرى) فالباحث التربوى على سبيل المثال قد يلجأ إليها بعد أن تكون قد أجريت بحوث استطلاعية(كشفية) على الظاهرة التربوية موضع الاهتمام من جانبه؛ فيحاول جمع الحقائق عن الظاهرة وتحليلها وتفسيرها للوصول إلى تعميمات بشأنها. وتتوقف الأهمية النظرية للدراسات المسحية على مقدار ما أسفرت عنه الدراسات السابقة؛ وعلى مدى معرفة الباحث بالظاهرة المدروسة .

الثانية: أنه يمكن الاستفادة من البحوث والدراسات المسحية فى عمليات التخطيط القومى والتربوى. ونظرًا إلى أن التخطيط يتطلب التعرف على الأهداف المختلفة للجماعات وقياسها؛ كمًا وكيفًا، وترتيبها حسب أولوياتها، واستقصاء رغبات الأفراد والجماعات، والتعرف على ميولهم، واتجاهاتهم، والكشف عن الموارد والإمكانات، وتقديرها، فإنه يصبح من المحتم القيام بدراسات مسحية لجمع

البيانات المطلوبة، وهذه البيانات تجمع عادةً قبل البدء فى البرامج المختلفة، وتجمع أثناء، وبعد تنفيذ البرنامج .

الثالثة: أنه يمكن الاستفادة من البحوث والدراسات المسحية ـ أيضًا ـ فى دراسة المشكلات وتحديدها، وتحديد مدى تأثيرها على المجتمع. وتحديد ومعرفة الأفراد، والجماعات المهتمة بحل هذه المشكلات، وتقدير الموارد والإمكانات الموجودة، والتى يمكن استخدامها لعلاج المشكلات، واقتراح الحلول لها .

الرابعة: أنه يمكن الاستفادة من البحوث والدراسات المسحية ـ كذلك ـ فى قياس اتجاهات الرأى العام نحو مختلف الموضوعات. وقد يتطلب الأمر ـ فى كثير من الأحيان ـ قياس الاتجاهات فى مراحل مختلفة لتقييم الجهود المبذولة، أو للمقارنة بين طرق مختلفة لتغيير الاتجاهات .

أنواع الدراسات المسحية:

توجد تصنيفات متعددة للبحوث والدراسات المسحية، وسوف نناقش خمسة أنواع فرعية من هذه البحوث هى: المسح المدرسى، وتحليل العمل، وتحليل الوثائق، الدراسات المسحية عن الرأى العام، وأخيرًا مسح المجتمع المحلى .

وتجدر الإشارة هنا إلى أمرين؛ أولهما أن هذا التصنيف ليس تصنيفًا نهائيًا؛ لا يقبل التغيير والتعديل، وثانيهما أنه لا يوجد خط فاصل دقيق بين هذه الأنواع .

وفيما يلى عرض لهذه الأنواع الخمسة :

(أ) الدراسات المسحية المدرسية(المسح المدرسى):

بدأ بعض العاملين فى مهنة التربية والتعليم، مع بدايات القرن العشرين الماضى، فى القيام بعمليات مسح مدرسى. وبناءً على ما توصلوا إليه من نتائج أعدوا خططًا لتحسين الكفاية والفاعلية التربوية. وبتعاقب السنين، قام من جاء بعدهم بمواصلة جمع الحقائق عن طريق الملاحظات، والاستخبارات، والمقابلات، والاختبارات المقننة، وبطاقات الدرجات، ومقاييس التقدير، وغير ذلك من طرق جمع البيانات

والمعلومات، وتقويمها؛ ونتيجة لتحليل تلك البيانات، قدموا توصيات أحدثت تحولًا فى الكثير من الممارسات الإدارية، والتعليمية، والمالية، ومناهج التعليم .

كما يتعلق هذا النوع من البحوث والدراسات المسحية بدراسة الموضوعات والمشكلات المتعلقة بالميدان التربوى بكافة أبعاده؛ كالأهداف التربوية، ومحتوى المنهج، وطرق وأساليب التدريس، والوسائل التعليمية، وهيئة التدريس، والتوجيه الفنى، والإجراءات المالية والإدارية، والخدمات الطلابية، والمبانى المدرسية وغيرها من مكونات النظام المدرسى والعوامل المؤثرة فيه .

ويمكن أن يقوم بهذا المسح أعضاء من هيئة التدريس والإدارة، وقد يقوم به فريق من أعضاء هيئة التدريس والخبراء. وتجرى الدراسات المسحية المدرسية عامة بغرض التقويم الداخلى أو الخارجى، أو بغرض التقويم والتوصل إلى تحديد الاحتياجات؛ وينتج عن هذه الدراسات فى الغالب مجموعة من التوصيات أو تقديرات للاحتمالات المستقبلية، وهى تقوم على جمع البيانات عن الوضع الراهن لمتغيرات مثل: خصائص المجتمع المحلى، وهيئة العاملين الإدارية والفنية، والمجتمع والتعليم .

البيانات التى يبحث عنها فى الدراسات المسحية المدرسية :

تقع المعلومات التى يُبحث عنها فى معظم الدراسات المسحية فى النواحى الأربع التالية:(١) الوضع الذى يتم فيه التعليم، و(٢) خصائص هيئة التدريس، و(٣) طبيعة التلاميذ، و(٤) العملية التربوية .

أما الوضع الذى يتم فيه التعليم؛ فإن بعض الدراسات المسحية تختص بالوضع القانونى، أو الإدارى، أو الاجتماعى، أو المادى للتعليم. ذلك أنها قد تبحث عن معلومات عن القرارات الممكنة، أو المراسيم والاحتفالات، أو التشريعات، أو قوانين المجالس المحلية، أو قواعد مجالس الآباء، أو أية تشريعات أخرى تؤثر بشكل أو بآخر فى العملية التربوية. وقد تبحث الدراسات المسحية أيضًا فى تشكيل مجالس إدارة المدارس، والهيئات، واللجان، والجمعيات التى تتعلق بالمشروعات التربوية، ومسؤولياتها، وسلطاتها، وعلاقاتها .

ومن الشائع أن تبحث الدراسات المسحية عن أوصاف لمختلف جوانب المبنى المدرسى، مثل الموقع، الإضاءة، التهوية، مساحة الأرض التى يشغلها كل تلميذ، والظروف الصحية، وظروف الأمن، وأماكن اللعب، والمطعم، والمكتبة. وفى بعض الأحيان تثار أسئلة عن التجهيزات، والإمدادات، مثل عدد الكتب التى بالمكتبة، وأنواعها، أو عدد المعامل، والأدوات الرياضية، أو الأجهزة السمعية والبصرية، وأنواعها، أو غير ذلك من التجهيزات. وتختص بعض الدراسات المسحية بحجم الفصول، وطولها، وعددها، فى حين تبحث دراسات أخرى فى جوانب التركيب الاجتماعى فى الفصل المدرسى أو المنزل، أو المجتمع المحلى الذى يمكن أن يؤثر فى عملية التعلم.

وأما خصائص هيئة التدريس؛ فإن كثيرًا من الدراسات المسحية تجمع معلوماتٍ عن المدرسين والموجهين، والإداريين الذين يكونون مسؤولين بدرجة كبيرة عن العملية التربوية. فقد تثار بشأنهم أسئلة تتعلق بجنس المعلم، أو العمر، أو الجنسية، أو التعليم، أو الدرجات، أو الخلفية الاجتماعية ـ الاقتصادية، أو عضوية الجماعات، أو الدخل. وقد تُبذل بعض الجهود لمعرفة الأماكن التى يعيشون فيها، أو كفاية مساكنهم، أو مؤهلاتهم، وممتلكاتهم، أو أحوال التقاعد.

كما تدرس العديد من الدراسات المسحية سلوك المعلمين فى الفصل المدرسى، والقسم الذى يعملون فيه؛ والمجتمع الذى ينتمون إليه؛ بهدف قياس فاعلية عملية التدريس، أو تحسينها. ويعتبر من بعض أهداف الدراسات المسحية تحديد الصلاحية الجسمية للمربين، واتجاهاتهم حيال قضايا مختلفة، وطبيعة علاقاتهم بالزملاء، والطلاب، والمجتمع، ومدى هذه العلاقات، وتوقعاتهم لأنفسهم، وللطلاب والمدرسة، والمجتمع المحلى. وتبحث دراسات مسحية أخرى عن الواجبات المختلفة التى يقوم بها المربون وما يكرسونه من وقت لكل منها. وتجرى أيضًا دراسات أخرى عن مسؤوليات رجال الإدارة، ورؤساء الأقسام، والمدرسين والموظفين الآخرين، وسلطاتهم وما بينهم من علاقات.

وأما طبيعة التلاميذ، فإن الكثير من الدراسات المسحية تهدف إلى اكتساب معلومات عن الأنماط السلوكية للتلاميذ داخل الفصل الدراسى، ومع جماعات

الرفاق، وفى المنزل، وفى المجتمع المحلى. وقد تبحث عن أوصاف بشأن الوضع الاجتماعى ـ الاقتصادى للأسرة. وقد يوجه الباحثون أسئلة عن الحالة الصحية للتلاميذ، واتجاهاتهم، ومعلوماتهم، ومهاراتهم، وتحصيلهم الأكاديمى، ومعاملات ذكائهم، واستعداداتهم، وعاداتهم فى العمل أو الدراسة، وما يفضلونه وما لا يفضلونه. وتهتم بعض الدراسات المسحية بمعالجة الأنشطة اللا صفية(أنشطة خارج المنهج) أو خبرات المعسكرات والرحلات، أو أنشطة اللعب، أو الأنشطة الترويحية. وقد تثار أسئلة عن عادات القراءة، أو العادات الصحية، أو التغذية. وتختص بعض البحوث بسجلات الحضور والغياب، أو بعدد التلاميذ، أو التلاميذ المشكلين والمضطربين، وأنماطهم، أو بطبيعة حالات النظام أو السلوكيات الدالة على الجناح والانحراف وتكرارها واستمراريتها وما إلى ذلك من سلوكيات غير مرغوبة .

وأما العملية التربوية، فقد تقوم الدراسات والبحوث المسحية بإخضاع البرامج والعمليات والعائدات التربوية لفحص الباحثين ودراستهم. فقد يبحث هؤلاء الباحثون فيما يتضمنه المنهج وما لا يتضمنه. وقد يدرسون الوقت المخصص للأنشطة والجوانب المختلفة لكل نشاط؛ مثل مقدار الوقت الذى يخصص للأدب، والنحو، والتعبير فى فصول اللغة الإنجليزية. وقد يقوم الباحثون بتقويم محتويات الكتب المدرسية والمواد التعليمية من حيث طبيعتها وقدرها. وقد تصف بعض البحوث المسحية طبيعة الخدمات المدرسية وعددها، مثل الخدمات المتعلقة بالصحة، والمكتبة، والتوجيه، والبحث، وتعليم الكبار، ويسعى بعض الباحثين إلى الحصول على معلومات عن أنواع ودرجات التقدم، أو التخلف بين الطلاب فى المواد الدراسية المختلفة، وعلى مستويات أكاديمية متباينة .

(ب) الدراسات المسحية عن تحليل العمل :

ويستخدم تحليل العمل ـ وهى طريقة مستعارة من ميدان إدارة الأعمال والأعمال الحكومية ـ فى بعض الأحيان لدراسة الأوضاع الإدارية، والتعليمية، وغير التعليمية. ففى هذه البحوث قد تجمع المعلومات عن واجبات العاملين

ومسؤولياتهم العامة، والأنشطة المعينة التى يزاولونها فى عملٍ من الأعمال، وأوضاعهم، وعلاقاتهم فى داخل التنظيم الإدارى، وظروف أعمالهم، وطبيعة نوع التسهيلات المتاحة لهم. وقد تبحث أيضًا أوصاف التعليم، والتدريب المتخصص للعاملين وخبراتهم، ومرتباتهم، وما لديهم من معارف، ومهارات، وعادات، ومستويات صحية، وسمات سلوكية. وتساعد البيانات المتجمعة الباحثين على وصف ممارسات وظروف العمل الجارية، والكفاءات والسمات السلوكية التى يتصف بها الأفراد، أو ينبغى أن يتصفوا بها لكى يقوموا بعملهم بفاعلية وكفاية .

وينبغى على الباحثين الذين يضطلعون بدراسات تحليل العمل؛ أن يكونوا واعين بالصعوبات المتضمنة فى الحصول على أوصاف دقيقة. فمثلًا إذا جزأت دراسة من الدراسات عملًا من الأعمال إلى عديد من الأنواع المعينة من الأنشطة؛ فإن جُماع هذه الأشياء الكمية أو الآلية تعطى صورة جزئية عن العمل فقط؛ ذلك لأن هذا التحليل يغفل الخصائص الكيفية أو الابتكارية اللازمة للأداء الناجح للعمل. فالدراسة التى لا تعطى اهتمامًا للخصائص الشخصية اللازمة للعامل؛ مثل المثل العليا، والاتجاهات، والثراء الفكرى، والأصالة والتعاون، ومدى إمكانية الاعتماد على الشخص وما يتمتع به من فطنة وكياسة ـ لا تقدم وصفًا كاملًا للعمل. إلا أنه من العسير الحصول على بيانات موضوعية ثابتة تتعلق بهذه الخصائص الشخصية التى تلعب دورًا مهمًا فى تحديد الطريقة التى يؤدى بها العمل. كذلك يقوم تحليل العمل الذى يعطى أوزانًا متساوية لكل الأنشطة، والوظائف والخصائص الشخصية التى ترتبط بوظيفة معينة ـ صورة ممسوخة أيضًا؛ لأن كل عامل لا يسهم فى أداء العمل بدرجة متساوية. ومن ثم ينبغى تدبير طريقةٍ ما لتقدير الأهمية النسبية لمكونات العمل المختلفة، ومن العسير الحصول على طريقة موضوعية لعمل ذلك.

(جـ) الدراسات المسحية عن تحليل الوثائق :

قد تكون قراءة الوثائق والسجلات ثقيلة بالنسبة لغير المتخصص؛ إلا أن الباحثين غالبًا ما يستكشفون بيانات ممتعة ولها دلالتها من هذه المصادر. ويرتبط

تحليل الوثائق ـ الذى يسمى أحيانًا بتحليل المحتوى[1]، أو النشاط، أو المعلومات ارتباطًا وثيقًا بالبحوث التاريخية. فكل من هذين المنهجين من مناهج البحث ـ أى منهج البحث الوصفى ومنهج البحث التاريخى ـ يفحص السجلات الموجودة، إلا أن البحوث التاريخية تهتم أساسًا بالماضى البعيد؛ بينما تتعلق البحوث الوصفية بالوضع الراهن .

(د) الدراسات المسحية عن الرأى العام :

ويستخدم القائمون بالدراسات المسحية عن الرأى العام عادة الاستفتاءات أو المقابلات الشخصية لجمع بياناتهم، ويختار القادرون منهم مبحوثيهم(مفحوصيهم) بعناية بحيث تمثل بدقة وجهات نظر كل قطاع من المجتمع كله. فمثلًا لكى يتنبأ هؤلاء القائمون بنتيجة انتخاب قومى، فإنهم يسعون أولًا إلى تحديد المتغيرات التى سوف تؤثر فى اقتراع الأفراد؛ مثل الوضع الاقتصادى، أو الدين، أو الانتماء لحزب من الأحزاب، أو السن، أو الإقامة فى القرية ـ أو المدينة، أو التعليم، أو الجنس. وبعد وضع هذه المحددات، فإنهم يقومون مقدار الوزن الذى يعطونه لكل متغير من هذه المتغيرات عند اختيار العينة .

حدود الدراسات المسحية عن الرأى العام :

للدراسات المسحية عن الرأى العام حدود؛ فتلك الدراسات التى لا تبنى بعناية، تؤدى إلى معلومات لا يوثق بها. فلو فرضنا أن مديرًا للتربية فى منطقةٍ ما أرسل استفتاءات تتعلق بقضايا التعيينات المالية للمدارس لكل الاجتماعات التى تعقدها مجالس الآباء والمدرسين بالمدارس العامة؛ فمن المحتمل ألا تتفق نتائجه مع التصويت الذى سوف يعطى يوم الانتخاب؛ لأن أعضاء مجالس الآباء والمدرسين عادةً ما يكونون أكثر رغبة فى الحصول على مدارس جديدة من أولئك المواطنين المتقاعدين، والأزواج الذين لم يرزقوا أطفالًا، وأولئك الذين أرسلوا أطفالهم إلى المدارس الخاصة، كما أن البيئة التى يجرى فيها الاقتراع قد تؤثر أيضًا فى مدى الثقة

---

(١) سوف تتم الإشارة إلى كل من تحليل الوثائق وتحليل المحتوى بشئ من التفصيل فى الفصل السادس الخاص بأدوات جمع البيانات فى مجال البحوث التربوية والنفسية والاجتماعية.

فى البيانات. فلو طلبنا من مجموعة من الطلاب ـ مثلًا ـ أن يعبروا عن اتجاهاتهم نحو الرياضيات، وكانوا يحبون مدرسهم الحالى، أو كان لديهم امتحان صعب منذ فترة بسيطة؛ فإنهم قد يسجلون استجاباتهم لهذه الأمور بدلًا من أن يسجلوا اتجاهاتهم الأكثر استمرارًا نحو الرياضيات .

وقد تثار أيضًا مشكلات أخرى تتعلق بصحة الإجابات التى تجمعت فى الدراسات المسحية وثباتها. فعندما يعطى الناس، قضية من القضايا ـ قدرًا كبيرًا من التفكير، فإنهم يكونون قادرين على إعطاء رأى محدد فيها، أما إذا لم يحاطوا علمًا بالموضوع؛ فإنهم لا يستطيعون إلا إعطاء قرارات مضطربة، أو أحكام متسرعة. كما أن قياس شدة الرأى، أو عمقه أمر صعب أيضًا؛ فإذا أجابت إمرأتان على استفتاء من الاستفتاءات، فقد توضح كل منهما أنها تعارض إدخال هيئة الأمم المتحدة كموضوع للدراسة فى المدارس؛ ولكن إحداهما قد تقتنع بتغيير رأيها بسهولة؛ بينما قد تعارض الأخرى وتتمسك بما تعتقد بقوةٍ وصلابة .

(هـ) الدراسات المسحية للمجتمعات المحلية :

غالبًا ما يجد الباحثون التربويون أنه من الضرورى دراسة الوضع فى المجتمع المحلى، والجوانب المميزة للحياة فيه نتيجة لما بين المدارس والمجتمع المحلى من علاقة وثيقة. وفى بعض الأحيان، ينضم الباحثون التربويون إلى باحثين اجتماعيين آخرين فى مشروعات البحث عن الحقائق، أو ما تعرف بالدراسات المسحية عن المجتمع المحلى؛ أو الدراسات المسحية الاجتماعية، أو الدراسات الميدانية. وهذه الدراسات المسحية للمجتمع المحلى قريبة الشبه جدًا من الدراسات المسحية المدرسية؛ ذلك أنها قد تتضمن بيانات تتعلق بالمدارس، وبالعكس قد تحلل الدراسات المسحية المدرسية جوانب كثيرة من المجتمع المحلى .

وحول مجال الدراسات المسحية عن المجتمع المحلى ومدى عمقها، يذكر " فان دالين "(١٩٨٥ : ٣٥٦) أن بعض الدراسات المحلية تتركز بدرجة كبيرة حول موضوعات معينة مثل الخدمات الصحية، أو العمل، أو جُناح الأحداث، أو الإسكان، وتقدم دراسات مسحية أخرى بيانات تتعلق بقطاع معين من قطاعات المجتمع.(مثل الشباب الذين يهاجرون إلى البلاد الأوروبية وإلى الولايات المتحدة

بطرق مشروعة، والشباب الذين يهاجرون بأساليب وطرق غير مشروعة، وكذلك المقيمين فى المناطق العشوائية). ومن ناحية أخرى؛ فإن هناك دراسات مسحية شاملة تغطى الكثير من جوانب الحياة فى المجتمع المحلى، وقد تعطى ـ تقريبًا ـ وزنًا متساويًا لكل جانبٍ منها. وتعتبر طبيعة المشكلة التى يتصدى لها الباحث، ومقدار الوقت، والمال، والقيادة الرشيدة المتيسرة، واستعداد الهيئات للتعاون فى مسح المجتمع المحلى؛ عوامل لها دورها فى تحديد مجال الدراسة وعمقها .

ويقوم الباحثون الذين يضطلعون بدراسات مسحية شاملة عن مجتمعاتهم المحلية بجمع معلومات تتعلق بعوامل كثيرة تسهم فى تحديد طبيعة الحياة فى المجتمع المحلى. ولكى يقوموا بذلك، يوجهون أسئلة مثل الأسئلة التالية تدور حول:

(١) تاريخ المجتمع المحلى :

ما هى الحقائق المتوفرة فيما يتعلق بأصل المجتمع المحلى وبنموه وتطوره فى مراحله المبكرة وسكانه الأوائل؛ وقادته الرواد وتأثيراتهم، ومؤسساته ومناشطه الاقتصادية الأولى؟ وما هى التطورات التى حدثت منذ ذلك الوقت؟ وما هى العوامل التى أدت إلى حدوث هذه التغيرات؟ .

(٢) الحكومة والقانون :

ما هو الأساس القانونى أو التنظيمى لكيان المجتمع المحلى وإدارته القائمة؟ كيف تحدد القوانين واللوائح والتنظيمات المتعلقة بهذا المجتمع المحلى، والتشريعات المحلية: الحقوق والواجبات؟ وعلاقات الهيئات المختلفة والموظفين؟ وما هى التنظيمات السياسية التى توجد؟ ما هى الطرق التى تستخدم فى جمع الضرائب؟ وما هى القوانين التى تحكم حق زيادة الضرائب؟ ما هى طبيعة الخدمات التى تقدمها الهيئات الحكومية، ونوعها، ومداها؟ .

(٣) الظروف الجغرافية والاقتصادية :

كيف تؤثر جغرافية المنطقة فى النقل، والمواصلات، والأعمال، والمهن، والصحة، وقيمة الأرض، والترويح، وتوزيع السكان، والتاريخ الاجتماعى؟ ما هى المناشط الاجتماعية التى توجد فى المجتمع المحلى؟ أى الناس، أو الجماعات، أو التنظيمات

تمثل اهتمامات الجماعات المختلفة فى: العمل أو الزراعة؟ ما هو تأثيرها فى المجتمع المحلى؟ ما هى الأحوال الاقتصادية للناس؟

(٤) الخصائص الثقافية :

هل المجتمع المحلى منعزل اجتماعيًا عن المجتمعات المحلية الأخرى؟ ما هى أسباب هذا الانعزال وآثاره؟ هل هناك مظاهر للجهود التعاونية وتماسك الجماعة؟ هل هناك مظاهر للإنشقاقات والصراعات الطائفية، أو الطبقية، أو الدينية؟ ما هى المستويات الأخلاقية العامة للمجتمع المحلى؟ ما هى المناشط، والخدمات، والتسهيلات الثقافية التى توجد مثل دور العبادة، والمكتبات والمتاحف، والحدائق؟ ما هى الهيئات والتنظيمات، والمشروعات الخاصة التى توفر هذه الخدمات، وما هى علاقتها ببعضها؟ ما هى المناشط أو الظروف المضادة للمجتمع؛ مثل مناطق الآفات، والجريمة، والجُناح؛ ومن المسؤول عنها؟ إلى أى حدٍ، وكيف تثرى الجماعات، والهيئات والظروف المختلفة؛ حياة المجتمع المحلى، أو تعرضه للخطر؟

(٥) السكان :

ما هو تكوين السكان؟ من حيث: السن، والجنس، واللون، والتعليم، والحرف، واللغة القومية، ونوع وموقع المساكن؟ كيف يتحرك السكان؟ ما هو حجم السكان؟ هل هو يتزايد أم يتناقص؟ ولماذا؟ ما الذى تكشفه معدلات المواليد، والوفيات، والمرض عن السكان؟ .

ومنذ البداية استخدام القائمون بالدراسات المسحية للمجتمعات المحلية طرقًا وأساليب للبحث من ميادين مختلفة، واعتمدوا على مصادر متعددة كثيرة للمعلومات، فقد استخدموا الاستفتاءات، والمقابلات الشخصية، والملاحظة المباشرة، والأساليب الإحصائية، والدراسات الإيكولوجية وغيرها من الطرق لجمع البيانات من الهيئات الرسمية العامة، والهيئات الاجتماعية، ورجال الدين، والأطفال، والمدرسين، والوثائق المختلفة. وقد يسر لهم هذا المدخل المتعدد المناهج فى البحث أن يستخدموا طرقًا متعددة، ومتداخلة لاستنباط معلومات تتعلق بطبيعة العمليات الاجتماعية المختلفة ودورها .

والشكل التالى يلخص أنواع البحوث المسحية من حيث أهدافها وأنواعها:

والشكل التالى يلخص أنواع البحوث المسحية من حيث أهدافها وأنواعها:

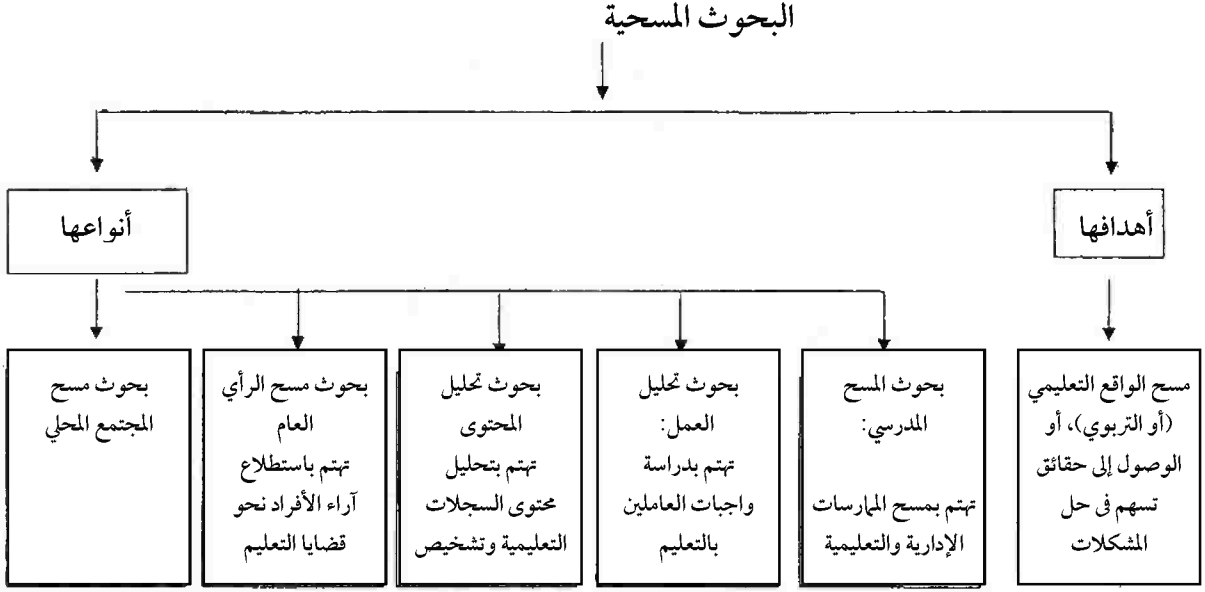

شكل (٣) البحوث المسحية أهدافها وأنواعها

كلمة ختامية:

فى ضوء ما ذكرناه عن البحوث والدراسات المسحية يمكن أن نُلخِّص الجوانب الأساسية، والخطوط العامة لها على النحو التالى:

الأول: أنه عن طريق البحوث والدراسات المسحية، يقوم الباحث بجمع بيانات ومعلومات تفصيلية عن مؤسسات أو وحدات إدارية، أو اجتماعية، أو تعليمية، أو ثقافية، أو منطقة جغرافية.

الثانى: أنه نمط من البحوث يسعى للقيام بدراسة الظواهر والأنشطة، وبعض الصفات الموجةدة فيهان والتى تحقق هدف البحث.

الثالث: أن أهم أهداف البحوث والدراسات المسحية تتركز فى جانبين أساسيين، هما: إما تبرير الأوضاع، والأنشطة الموجودة في مجتمع المسح. أو: الوصول إلى خطط أفضل بغرض تحسين الأداء والأوضاع فى المجتمع المعنى بالمسح.

الرابع: يتم تحقيق أهداف البحوث والدراسات المسحية فى ضوء مقاييس وأسس مُحددة تم إعدادها مسبقًا؛ ومقارنتها بالواقع الحالى... كأن يكون ذلك ما حدده المتخصصون والكتاب فى هذا المجال، أو ما هو موجوده فى مؤسسات، أو وحدات متطورة، ومتقدمة فى هذا المجال أو الموضوع المطلوب دراسته.

الخامس: أن البحوث والدراسات المسحية تكون للأنشطة، والظواهر الجارية، والحالية فى المقام الأول.

السادس: أن حجم الدراسة المسحية يتحدد بحجم المشكلة وعمقها، فتدرس كافة المؤسسات والواحدات، أو يتم اختيار نماذج منها ممثلة للمجتمع الأصل، وقد تجمع البيانات والمعلومات من كل فرد من افراد المجتمع المطلوب دراسته، إذا كان حجم المجتمع محدودًا أو محددًا وقابلًا للدراسة، وقد تجمع البيانات والمعلومات من نماذج وعينات يحددها الباحث مسبقًا.

السابع: أن البحوث والدراسات المسحية أثبتت فاعليتها في الموضوعات الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية المعاصرة.

الثامن: وسائل جمع المعلومات فى البحوث والدراسات المسحية هي الاستبيان في المقام الأول، أو المقابلة، أو كليهما، وقد يحتاج الباحث إلى الرجوع إلى السجلات، ووثائق المؤسسات، أو الوحدات المطلوب دراستها.

التاسع: أن البحوث والدراسات المسحية هي أحد أنماط البحوث والدراسات الوصفية.

العاشر: أن هناك عددًا من المجالات يُرجَّح فيها استخدام البحوث والدراسات الوصفية، منها على سبيل المثال:

أ ـ البحوث والدراسات فى مجال التعليم.

ت ـ البحوث والدراسات المسحية فى المجال الاجتماعى.

جـ ـ البحوث والدراسات المسحية فى مجال الرأى العام.

د ـ البحوث والدراسات المسحية فى المجالات الاقتصادية.

هـ ـ البحوث والدراسات المسحية فى مجال الثقافة.

الحادي عشر: أن البحوث والدراسات المسحية يمكن الاستعانة بها فى دراسة العلاقات السببية بين الظواهر، والأنشطة المختلفة، مثل: دراسة العلاقة بين الإفراط فى التدخين والإصابة بمرض السرطان، ودراسة العلاقة بين المستوى الثقافى واستخدام المكتبات العامة... وما إلى ذلك من علاقات سببية.

النمط الثانى: بحوث ودراسات العلاقات المتبادلة :

هناك بعض الباحثين الذين يستخدمون منهج البحث الوصفى لا يقنعون بمجرد الحصول على أوصاف دقيقة للظاهرات السطحية، فهم لا يجمعون فقط معلومات عن الوضع القائم، ولكن يسعون أيضًا إلى تعقب العلاقات بين الحقائق التى حصلوا عليها بُغية أن يتوصلوا إلى استبصار أعمق بالظاهرات .

والشكل التالى يشير إلى بحوث دراسة العلاقات المتبادلة:

والشكل التالي يشير إلى بحوث دراسة العلاقات المتبادلة

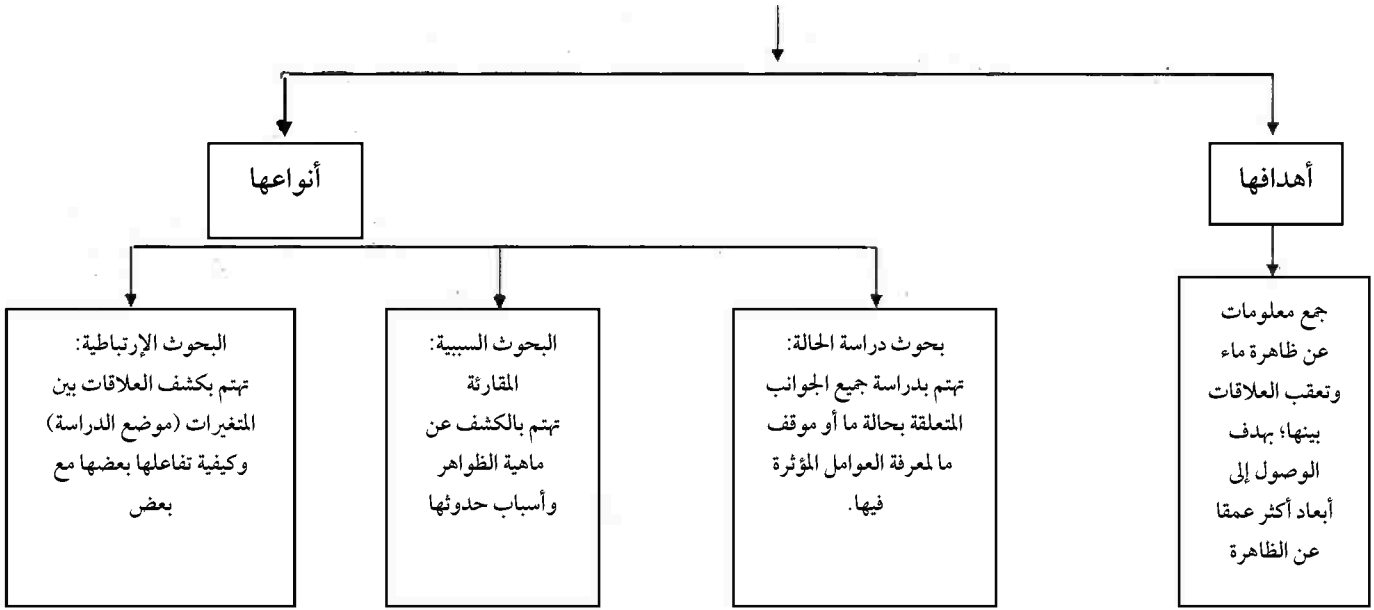

(شكل ٤) بحوث دراسة العلاقات المتبادلة

وتحت عنوان بحوث ودراسات العلاقات المتبادلة يمكن عرض ثلاثة أنماط فرعية من هذه الدراسات، وهى دراسة الحالة، والدراسات العلِّية(السببية) المقارنة، وأخيرًا الدراسات الارتباطية .

النمط الفرعى رقم(١):دراسة الحالة Case study (*)

(أ) **تمهيد**: تمثل دراسة الحالة نوعًا من البحث المتعمق عن العوامل المعقدة التى تسهم فى فردية وحدة اجتماعية ما ـ شخصًا كان أو أسرة، أو جماعة، أو مؤسسة اجتماعية، أو مجتمعًا محليًا. فمن خلال استخدام عدد من أدوات البحث، تُجمع بيانات دالة عن الوضع القائم للوحدة، والخبرات الماضية، والعلاقات مع البيئة. وبعد النظر فى العوامل والقوى التى تحدد سلوكها بعمق، وتحليل نتائج تلك العوامل وعلاقاتها؛ يستطيع الباحث ان ينشئ صورة شاملة متكاملة للوحدة كما تعمل فى المجتمع .

(ب) طبيعة دراسات الحالة :

يدرس الأخصائيون الاجتماعيون والأخصائيون النفسيون عادة شخصية الفرد بقصد تشخيص حالة معينة، وتقديم توصيات بالإجراءات العلاجية. ويقتصر اهتمامهم بالفرد من حيث انه شخصية فريدة. ومن ناحية أخرى، فإن الباحثين أكثر ميلًا إلى أن يهتموا بالأفراد كأنماط ممثلة. فهم يجمعون بيانات عن الأفراد المختارين بعناية بقصد التوصل إلى فهم أكثر اكتمالًا عن الجماعة التى يمثلونها(فان دالين، ١٩٩٢: ٣٥٩).

وإذا كانت دراسة الحالة تنفذ دائمًا إلى الأعماق، إلا أنها قد تفحص دائرة الحياة الكلية لوحدة اجتماعية، أو قد تركز الانتباه والاهتمام على جانب معين منها .

فقد يتحدد بحث بدراسة علاقات الأطفال مع أقرانهم، أو علاقات المدرسين

(*) يعود المؤلف إلى عرض دراسة الحالة بمزيد من التفصيل ـ كأداة من أدوات جمع المعلومات فى الفصل السادس من هذا الكتاب .

مع مديرهم. ومن ناحية أخرى؛ إذا أراد باحث أن يؤكد العوامل التى أسهمت فى سوء التوافق الاجتماعى لدى الأطفال الجانحين، أو تلك العوامل التى أسهمت فى نجاح المدرسين فى أداء مهامهم، فغالبًا ما يتم البحث بعمق فيما يتعلق بكل جانب من جوانب حياتهم الكلية ـ طفولتهم، الأسرة، المدرسة، العمل، الخبرات الاجتماعية، وكثيرًا من سماتهم السلوكية .

ويصاغ تحليل الحالة فى إطار اجتماعى دقيق، وتحدد طبيعة الحالة ابعاد هذا الإطار. فمثلًا؛ لكى نكتشف أى الظروف أو العوامل أو القوى تقود الشباب إلى أن يرتكبوا جرائم؛ فإن الباحث ينبغى أن يذهب إلى ما هو أبعد من الأحداث نفسها ـ من حيث الوقت، والمكان، والطبيعة، والسبب المباشر للأفعال. وأما بعض دراسات الحالة التى تقتصر على جزء منعزل من حياة الأفراد، فإن من المحتمل أن تكون هذه الدراسة مصطنعة، وغير ذات معنى؛ ذلك أنها لا تأتى بالبيانات اللازمة للنفاذ إلى علاقات السبب ـ النتيجة(الأثر) الأساسية .

(جـ) مصادر بيانات دراسة الحالة :

تأتى بيانات دراسة الحالة من مصادر عديدة، فقد يحصل الباحث على بيانات شخصية من المفحوصين أنفسهم عن طريق سؤالهم بأن يسترجعوا الخبرات الماضية المتعددة، وأن يعبروا عن أمانيهم الراهنة، وذلك فى مقابلات أو استخبارات. وقد تؤدى الوثائق الشخصية ـ مثل المذكرات اليومية والخطابات والاختبارات، أو المقاييس الجسمية، أو السيكولوجية أو الاجتماعية، إلى معلومات قيمة.(سوف نناقش هذه الأدوات فى الفصل السادس).وقد تأتى البيانات أيضًا من الوالدين، والإخوة، والأخوات، والأصدقاء، والمعارف، ومختلف سجلات المحاكم، والحكومة، والمدارس والمستشفيات، والأعمال، والهيئات الاجتماعية، ودور العبادة .

(د) أوجه الشبه بين دراسة الحالة والدراسة المسحية :

تشبه دراسة الحالة الدراسة المسحية، إلا أنه بدلًا من جمع البيانات التى تتعلق بعوامل قليلة من عدد كبير من الوحدات الاجتماعية، فإنها تقوم بدراسة مستوعبة

لعدد محدود من الحالات الممثلة. بل وأكثر من ذلك؛ فإن دراسة الحالة تكون أكثر وصفية فى طبيعتها من الدراسات المسحية. ذلك أنه من خلال الوصف، بالكلمات يكشف الباحث عن ثروة من المعلومات القيمة التى قد لا يكون فى مقدور الدراسة الكمية أن تتوصل إليها. ونتيجة لذلك؛ فإنه غالبًا ما تستخدم دراسة الحالة فى أن تكمل الطريقة المسحية. ولو أن هناك بعض الكتاب الذين يصنفون بعض الدراسات عن المجتمعات المحلية على أنها دراسات للحالة؛ فى حين أن البعض الآخر يصنفها على أنها دراسات مسحية .

(هـ) إسهامات دراسة الحالة وحدودها :

تعتبر دراسات الحالة ذات فائدة بالنسبة للباحث القائم بالمسح؛ لأنها قد تكشف عن أى العوامل تكون صحيحة فى موقفٍ ما؛ والتى يمكن قياسها قياسًا كميًا. ومن ناحية أخرى، فإن الدراسات المسحية الإحصائية قد تزودنا بدليل لانتقاء المفحوصين الممثلين لدراسات الحالة، ولذلك يمكن القول هنا أن دراسة الحالة والدراسات المسحية كطريقتين من طرق البحث تتداخلان بشكل أو بآخر .

كما أن الطبيعة المتسعة والكشفية لدراسة الحالة قد تعطى الباحث استبصار قد يؤول به إلى تكوين فروض نافعة؛ لأن معرفة أن ثمة حالة معينة توجد فى مثال فريد تقترح عوامل توضع فى الاعتبار فى حالات أخرى. ولكن التعميم الذى يؤخذ من حالة واحدة، أو من حالات اختبرت بطريقة عرضية لا يمكن تطبيقه على كل الحالات فى المجتمع الأصل. وإذا أخذ التعميم من عددٍ ملائم من الحالات الممثلة، فإنه يمكن أن يطبق على ذلك المجتمع. ذلك أن الصعوبة تكمن ـ أصلًا ـ فى انتقاء مفحوصين، أو وحدات لدراسة تكون ممثلة أو مطابقة .

وبالرغم من أن الدليل الذى يشتق من دراسة الحالة الواحدة لا يمكن تعميمه على الكل، فإن وجود جانب سلبى من الدليل فى حالة مفردة، سوف يحول الباحث إلى الاحتمال الذى قد يحتاجه لتعديل فرضه. وبالإضافة إلى ذلك تثبت بيانات دراسة الحالة فائدتها؛ حينما يحتاج الباحث إلى أن يوضح النتائج الإحصائية للأمثلة

المجردة المأخوذة عن الحالات المفردة، بما يستطيع أن يساعد القراء على فهم التعميمات الإحصائية بطريقة أفضل .

(و) تقويم دراسات الحالة :

تبرز مسألة الموضوعية عندما نقوم بتقويم(نقوِّم) دراسات الحالة: فقد يطرح سؤال نصه: هل بيانات دراسة الحالة غير موضوعية بحيث لا تكون ذات قيمة علمية؟ وبعض البيانات؛ مثل تلك التى تتعلق بالطول والوزن ـ تكون موضوعية كتلك البيانات التى تجمع بواسطة طرق أخرى للبحث ـ ولكن عناصر الذاتية(غير الموضوعية) يمكن تدوينها فى تقرير، وعلى وجه الخصوص؛ حينما توضع أحكام عن شخصية المفحوص ودوافعه .

فالباحث الذى يستخدم دراسة الحالة :

(أ) ينبغى أن يقى نفسه ضد السماح للإنحيازات والاعتبارات، والتعصبات الشخصية من أن تؤثر فى تفسيره .

(ب) وينبغى أن يقرر الحقائق بدقة وموضوعية .

(جـ) وينبغى أن يرجئ إصدار الأحكام حتى يجمع الدليل الملائم لتأييد النتيجة .

(د) وحينما يجمع الأدلة من السجلات، والوثائق، والمقابلات، والاستخبارات ينبغى عليه أن يتخذ كل حيطة ممكنة لكى يستكشف ويتجنب تقبل البيانات التى تكون نتيجة أخطاء الإدراك، والذاكرة المضللة، والخداع المقصود، والإنحياز اللاشعورى، ورغبة الباحث(الذى يكتب التقرير) أو المفحوص فى أن يقدم الإجابة " الصحيحة "والميل إلى أن يؤكد بقوة الأحداث غير العادية أو الميل إلى أن يحرفها من أجل مزيد من التأثير .

النمط الفرعى رقم(٢) الدراسات العِلِّية(السببية) المقارنة :

(أ) طبيعة الدراسات العِلِّية(السببية) المقارنة :

بعض الدراسات الوصفية لا تحاول أن تكشف فقط عن ما هى الظاهرة،

ولكن؛ إذا كان هذا ممكنًا، تحاول أيضًا أن تكشف كيف ولماذا تحدث هذه الظاهرة على هذا النحو. ومن هنا، فإنها تقارن جوانب التشابه والاختلاف بين الظاهرات لكى تكتشف أى العوامل، أو الظروف يبدو أنها تصاحب أحداثًا، أو ظروفًا، أو عمليات أو ممارسات معينة .

ومعظم الدراسات الوصفية لا تكشف فقط عن حقيقة أنه يبدو أن هناك علاقة قائمة، ولكن بعض الدراسات تحاول أن تنظر بعمق بغية تأكيد ما إذا كانت هذه العلاقة قد تسبب أو تسهم، أو تكمن وراء الحالة السطحية أو الظاهرة أمامنا .

(ب) الحاجة إلى الدراسات العِلِّية(السببية) المقارنة :

حينما يدرس العلماء العلِّية[1] أو السببية؛ فإنهم يفضلون المنهج أو الطريقة التجريبية، ولكن الطريق العلِّية المقارنة ـ فى بعض الأحيان ـ تكون هى الطريقة الوحيدة التى يمكن اتخاذها للتصدى لمشكلة من المشكلات. ففى الطريقة التجريبية يرتب الباحثون المواقف، أو الظروف، ويضبطون كل العوامل فيما عدا متغير مستقل يتناولونه؛ لكى يكتشفوا ما يحدث. ولما كانت إعادة المواقف أو الظروف التى تجرى فيها التجربة أمرًا ممكنًا، فإنه ـ نتيجة لذلك ـ يكون التحقق أكثر دقة نسبيًا

---

(١) علِّية . سببية : Causality

الافتراض بأن كل الأحداث هى نتائج مترتبة على أحداث سابقة . وهو مبدأ فلسفى قديم قال به الفلاسفة الأقدمون، ومن أشهر من أكده فى الفلسفة الحديثة الفيلسوف " ليبنتز"؛ حيث قال بمبدأ السبب الكافى الذى يقضى بأن يكون لكل شئ سبب يتوقف عليه . وقد عارض بعض الفلاسفة الآخرون مبدأ الارتباط العلِّى (السببى) مثل الفيلسوف " ديفيد هيوم" .

وعلى أية حال؛ فإن من أوائل علماء النفس الذين اهتموا بمبدأ العلِّية أو السببية " فرويد " الذى رد الأحداث العقلية إلى أسباب (غرائز ـ دوافع ـ خبرات صادمة) بدلاً من ردها إلى أغراض أو أهداف . ويتقابل المنهج العلِّى (السببى) مع المنهج الوصفى الكامل المتبع فى البحث الاحصائى، ومع الطريقة الاستبطانية (جابر عبد الحميد وعلاء كفافى، ١٩٨٩، ج ، ٥٤٦) .

ولا يخرج " عبد المنعم الحفنى " (١٩٧٨ : ١٢٦) عن المعنى السابق حين يذكر أن العلِّية أو السببية هى تعليل الأحداث بأحداث أخرى وقعت قبلها، وتسمى الأولى أسباباً، والتالية عليها نتائج. ونظرية التحليل النفسى نظرية سببية؛ لأنها تفسر الأحداث والأعراض المرضية الحالية، بعلاقاتها بتجارب سابقة وقعت للمرء .

مما لو استخدمت طرق أخرى .

من ناحية أخرى، هناك مشكلات كثيرة فى العلوم السلوكية لا يمكن حلها بواسطة الطريقة التجريبية؛ فبسبب تعقيد وطبيعة الظاهرات الاجتماعية، لا يستطيع الباحث دائمًا أن ينتقى ويضبط العوامل اللازمة لدراسة علاقات السبب والأثر فى موقف معلمى مصطنع. فإذا ضبط المجرِّب التباين فى المتغيرات كلها ما عدا المتغير المستقل أى التجريبى، فإنه بهذا قد يمنع العمل المتصاحب للمتغيرات التى تعمل عادةً مع بعضها البعض، وبذلك يكون قد خلَّص المتغير المستقل من تأثير المتغيرات الأخرى، وفى تلك الأمثلة قد يكون تحليل ما يحدث حقيقة فى موقف طبيعى ـ طريقة أكثر قبولًا لدراسة الأسباب .

أضف إلى ما سبق؛ أنه فى بعض الحالات يعد استخدام الطريقة التجريبية إجراء غير عملى أو يستغرق ـ بطريقة غير مرغوبة ـ وقتًا ومالًا وجهدًا، مثل المظاهرات والإضراب. وفى أمثلة أخرى يعد استخدام الطريقة التجريبية إجراءً غير أخلاقى أو غير إنسانى. فالباحث لا يستطيع التحقق من مشاهدة ما يحدثه تحطم طائرة ما من هلاك؛ لكى يؤكد أسبابه؛ أو يضع أطفالًا متزنين انفعاليًا فى بيئات ضابطة لكى يحدد ما إذا كان من الممكن إنتاج أمراض عقلية مختلفة. ولذلك فإن احترام الكائنات الحية يمنع الباحث من أن يوقع ألمًا، أو عناءً، أو أذى بالآخرين. أو من التدخل بأى شكل من الأشكال فى النمو أو التطور السوى للفرد. ومن هنا فإنه لا يمكن استخدام التجارب ـ فى بعض الحالات ـ لدراسة العلِّية أو السببية، ولذلك فإنه ينبغى أن يتحول الباحث أو المجرِّب إلى الطريقة العلية أو السببية المقارنة .

(جـ) طرق البحث عن العلاقات :

حينما تُستخدم الطريقة العلِّية(السببية) المقارنة؛ بدلًا من ترتيب تجربة معملية مضبوطة ومحكمة؛ وحث المفحوصين على العمل، أو تغييرهم إلى صورةٍ ما؛ يدرس الباحث موقف الحياة الذى يلعب فيه المفحوصون ويمرون بالخبرات، أو يكونوا على النحو الذى يريد بحثه. فمثلًا فى دراسات عدم الثبات الانفعالى، لا يوضع

الأطفال الذين وقع عليهم الاختيار؛ فى موقفٍ حيث تظل جميع العوامل ثابتة فيما عدا المتغير الواحد الذى يتناوله الباحث بالدراسة لتحديد ما الذى يسبب نمطًا معينًا من الاضطراب الانفعالى. فأبعد من ذلك، يختار الأطفال الذين يكونون " مضطربين " وفقًا لمحك مختار، ويقارنون بمجموعة تكون غير مضطربة. وهناك يجرى بحث عن العوامل أو الظروف التى يبدو أنها ترتبط بمجموعة واحدة، وليس بالمجموعة الأخرى؛ حيث تُستخدم كتفسير ممكن للأسباب الكامن وراء المشكلة الإنفعالية .

(د) استخدامات الطريقة العلِّية(السببية) المقارنة فى أنماط المشكلات :

هناك الكثير من العمليات والممارسات، والبرامج، والمخرجات التربوية، يتم تحليلها بواسطة الطريقة العلية المقارنة. وتتراوح المشكلات بين التصميمات البسيطة نسبيًا، وغير الرياضية إلى الدراسات المعقدة إلى حدٍ ما، والتى تُستخدم فيها مجموعات ضابطة وبعض خصائص الطريقة التجريبية. ومن بين الدراسات الممثلة القليلة: دراسة مقارنة عن المراهقين الجانحين وغير الجانحين. والتحليل الفارق للعب المراهقين الذكور، وطرق المواجهة التى يستخدمها الطلاب ذوو التحصيل المنخفض وذوو التحصيل المرتفع فى محاولة تصحيح الأخطاء فى ست أنماط من عمليات الطرح متضمنة الكسور. ففى هذه الدراسات؛ يبحث القائمون بها عن المتشابهات والاختلافات بين مفحوصيهم للحصول على دلائل عما قد يسبب أو يسهم فى حدوث ظاهرة معينة .

بالإضافة إلى ذلك، فإن بعض دراسات النظم التربوية فى بلدان أو مناطق متعددة تستخدم الطريقة العلية المقارنة. فهذه الدراسات لا تتناول فقط الوضع المدرسى، ولكن تبحث أيضًا عن المتشابهات والاختلافات فى النظريات، والممارسات التربوية فى أماكن مختلفة وتحلل العلاقات المتداخلة للقوى التاريخية، والاجتماعية، والاقتصادية، والفلسفية التى فعلت تأثيرها؛ وذلك لتأكيد ما تسبب أو أسهم فى الظروف التى توجد .

(هـ) صعوبات تواجه الدراسات العلِّية المقارنة :

يشير " فان دالين "(١٩٩٠ : ٣٦٧) إلى أنه إذا كانت الطريقة العلية المقارنة فى حل المشكلات طريقة ذات جدوى ونافعة؛ إلا أنها لها أيضًا حدودًا. فمن بين بعض الصعوبات التى يمكن أن تواجه الباحثين حينما يستخدمون هذه الطريقة ما يلى :

الأولى: إذا كان العامل المتصل الذى يسبب ظرفًا معينًا لا يُتضمن بين البنود ـ التى توضع فى الاعتبار ـ حينما تدرس المشكلة؛ فإن السبب لا يمكن تأكيده. ولكن كيف يستطيع الباحث الذى يلجأ إلى هذه الطريقة أن يحدد من بين العوامل ما هو متصل وذو علاقة بما يبحثه أم لا؟ وإذا كان يبدو أن عوامل معينة تصاحب موقفًا معينًا؛ فإن واحدًا أو أكثر من هذه العوامل قد يكون هو سببه، ولكن من ناحية أخرى، قد تحدث الأشياء معًا دون أن يكون هناك علاقة سبب وأثر. ومن هنا؛ فإن الباحث ينبغى أن يكون لديه معرفة عامة بالظاهرات التى يدرسها، وينبغى أن يخطط لإجراءات الملاحظة بعناية إذا كان عليه أن يحدد الأسباب ذات العلاقة الممكنة، ويستبعد من دراسته العوامل المرتبطة بطريق الصدفة .

الثانية: تتطلب الطريقة العلِّية المقارنة أن يكون هناك عامل واحد حاسم يكون هو المسؤول عن حدوث الظاهرة، أو عدم حدوثها؛ ولكن نادرًا ما توجد هذه الحالة، حينما يتناول الباحثون الظاهرات الاجتماعية المعقدة؛ لأنه عادةً ما يكون للأحداث أسبابًا متعددة، أكثر من أن يكون لها سبب واحد. فمثلًا؛ ما هو العامل المحدد المسؤول عن التدريس الجيد؟ هل هو ما تلقاه المعلم من تدريب أثناء دراسته بالكلية، أو نوع التعليم الذى تلقاه، أو الخبرات غير المدرسية؟ أو الاتجاه نحو الأطفال، أو نمط شخصيته؟ فظاهرة التدريس لا يبدو أنها تنبع من عامل محدد واحد؛ ولكن تنبع من تفاعل عوامل ثابتة متعددة. ومن هنا، فإن الطريقة العلِّية المقارنة فى البحث ـ فى كثير من الأمثلة ـ تصل فقط إلى تقريبٍ للسبب فى ظاهرةٍ من الظاهرات .

الثالثة: أن الظاهرة ـ موضع اهتمام الباحث ـ قد تنتج ليس فقط من أسباب متعددة، ولكن أيضًا من سبب واحدٍ فى حالة واحدة، ومن سبب آخر فى حالةٍ أخرى .

الرابعة: الكشف عن العلاقات لا يحل بالضرورة المشكلات عن سبب الموقف أو الحالة، فكما سبقت الإشارة، فإن الحقيقة القائلة بأن مفحوصين يشتركان فى شئ ما قد يكون أمرًا عابرًا أو ظرفًا عارضًا، ولا يتعلق بالسبب الكامن وراء الظاهرة التى تُدرس، وحينما يكتشف الباحث علاقة سبب ـ أثر؛ فإنه ليس من السهل دائمًا أن نحدد أيهما السبب وأيهما الأثر. وإذا كانت ثمة دراسة تلاحظ علاقة بين الآباء الباردين انفعاليًا وإصابة الطفل بالتوحد فى مرحلة طفولتهم الباكرة، فإن السؤال الذى يبرز هو: هل البرود الانفعالى يؤدى إلى الإصابة بالتوحد، أم أن إصابة الطفل بالتوحد نتيجة طبيعية للبرود الانفعالى لدى الآباء؟ وحتى على الرغم من أن عاملين قد يظهران دائمًا معًا، فإن أحدهما قد لا يكون بالضرورة سبب الآخر. لأن كلاهما قد يسببه عامل ثالث أو خليط من العوامل. فمثلًا تكشف نتائج العديد من الدراسات أن النساء الأكبر سنًا بين السكان بوجه عام ينجبن أطفالًا أعلى ذكاء من النساء الأصغر سنًا. ولا نستطيع أن نقول هنا أنه كلما كبر سن الأم ـ نسبيًا ـ كان إنجابها لطفل أذكى أعلى احتمالًا، فربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن النساء اللاتى يتمتعن بذكاء مرتفع وقدرة عقلية عالية يملن إلى الزواج متأخرًا فى حياتهن، وليس السبب هو أن منتصف العمر هو أحسن فترة لإنجاب أطفال أذكياء.

الخامسة: أن تصنيف المفحوصين إلى مجموعات فرعية من أجل المقارنة، يترتب عليه أيضًا بعض المشكلات، ذلك لأن الظاهرات الاجتماعية ليست متشابهة إلا داخل حدود واسعة. فهى لا تقع بطريقة آلية فى فئات منعزلة. ومن هنا يُقال أن مقارنة متغير غامض بآخر قد ينتج إحصاءً دقيقًا، ولكنه قد يزودنا بمعرفة ضئيلة عن الوضع القائم؛ وإذا عُقدت مقارنات بين الطلاب الناجحين والطلاب غير الناجحين، أو عن أى مفحوصين آخرين لتأكيد ما الذى يسبب الظاهرة موضع الدراسة، فإنه ينبغى على الباحث تحديد الظاهرات أو الفئات بعناية فائقة.

السادسة: فى الدراسات المقارنة عن المواقف الطبيعية، لا يكون لدى الباحث نفس الضبط الدقيق فى اختيار المفحوصين كما يفعل فى البحوث والدراسات التجريبية المصممة تصميمًا دقيقًا. ذلك أنه أمر من الصعوبة بمكان كبير، أن يجد

الباحث مجموعات من المفحوصين قائمة بطريقة طبيعية تكون متشابهة فى كل الأوجه؛ فيما عدا تعرضها لمتغير واحد. فالخطر يكمن دائمًا فى أن المجموعات تختلف فى بعض الأوجه الأخرى، وليس فى هذا المتغير الواحد فقط، فمتغيرات مثل التمتع بالصحة البدنية، والذكاء، والخلفية الأسرية، والخبرة السابقة سوف تؤثر بلا شك فى نتائج الدراسة. فمثلًا إذا اختبر أحد الباحثين فرضًا عن تأثيرات كتاب معين فى الإرشاد النفسى على ممارسات معينة لدى بعض الأمهات؛ وذلك عن طريق مقارنة أساليب الأم فى التنشئة لدى بعض الأمهات اللاتى قرأن الكتاب بأولئك اللاتى لم يقرأنه، فإن الاحتمال قائم بأن مجموعة الأمهات اللاتى لم يقرأن الكتاب قد حظوا بمتابعة برامج تليفزيونية تثقيفية فى هذا الصدد، ومن ثم ترتب على هذه المشاهدة تحسن فى أساليب تنشئتهن لأطفالهن، أو أن الأمهات اللاتى قرأن الكتاب لم تتغير أساليبهن فى التنشئة نظرًا لأن سمات شخصياتهن تتعارض مع إتباع مثل هذه الأساليب الإرشادية. وما إلى ذلك.

النمط الفرعى(٣) البحوث والدراسات الارتباطية :

(أ) استخدامات البحوث والدراسات الارتباطية :

يذكر " فان دالين "(١٩٩٠: ٣٧١) أن البحوث والدراسات الارتباطية تُستخدم لتؤكد إلى أى حدٍ يرتبط متغيران ببعضهما البعض؛ أو إلى أى حد تتطابق تغايرات فى عامل واحد مع متغيرات فى عامل آخر. فمثلًا لو افترضنا أن أحد الباحثين يريد أن يعرف ما إذا كان يوجد ثمة ارتباط، ويريد أن يعرف مقداره بين الدرجات التى حصل عليها الأطفال المنتظمون فى الحضور من طلاب السنة الثالثة الإعدادية فى معامل الذكاء ودرجاتهم فى مادة العلوم فى نهاية الفصل الدراسى. وفى ضوء بعض الانطباعات العامة، قد يصل هذا الباحث إلى الفرض الذى يذهب إلى أنه بقدر ما يحصل الطالب على درجات مرتفعة فى معامل الذكاء، بقدر ما يكون درجته مرتفعة فى مادة العلوم. وأنه لكى يقوم الباحث باختبار هذا الفرض وتحديد أهمية العلاقة فإنه يستطيع القيام بالخطوات التالية :

- أن يحصل على درجات هؤلاء الطلاب فى معامل الذكاء، ودرجاتهم فى مادة العلوم وذلك من ملفاتهم أو سجلاتهم المتجمعة.

- وبعد تسجيل درجات معامل الذكاء وفقًا لنظام القدر المتزايد ـ أى من الدرجات المنخفضة إلى الدرجات المرتفعة، يضع الدرجات الخاصة بكل طالب فى مادة العلوم بجانب معامل ذكائه.
- بعد ذلك يتعين عليه أن يلاحظ ما إذا كانت درجات مادة العلوم تزيد بطريقة متطابقة مع درجات معامل الذكاء.

فإذا كانت درجة الطلاب فى كلا هذين الجانبين تتطابقان تمامًا، فإنه يوجد ارتباط موجب تام بين معاملات ذكائهم ودرجاتهم فى مادة العلوم، وإذا كان الجانبان يشتركان جزئيًا، فإنه قد توجد علاقة ما بين درجاتهم فى هذين الجانبين، ولكن عمق العلاقة بين المتغيرات يمكن تحديدها فقط عن طريق تطبيق إجراءات رياضية معينة .

(ب) طبيعة البحوث والدراسات الارتباطية :

فى هذا النمط الفرعى من أنماط البحوث والدراسات الوصفية قد ترتبط المتغيرات مع بعضها ارتباطًا تامًا، أو ترتبط إلى حدٍ ما، أو لا ترتبط كلية. وبوجه عام، تتوقف أهمية الارتباط على المدى الذى فيه تُصحب أو تُصاحب الزيادة أو النقصان فى متغير واحد بزيادة أو نقصان فى متغيرٍ آخر ـ ما إذا كان فى نفس الاتجاه أو فى الاتجاه المضاد. فمثلًا، يوجد ارتباط موجب مرتفع ـ بصفة عامة ـ إذا كانت تُصحب رتبة عالية فى مجموعة واحدة من الدرجات برتبة عالية فى مجموعة أخرى من الدرجات(ارتفاع معامل الذكاء، ارتفاع الدرجات فى المقررات الدراسية)، وإذا كانت تُصحب رتبة منخفضة فى مجموعة واحدة برتبة منخفضة فى مجموعة أخرى(انخفاض معامل الذكاء، انخفاض الدرجات فى المقررات الدراسية).

ويوجد ارتباط سالب مرتفع ـ بصفة عامة ـ إذا كانت تتطابق رتبة عالية فى مجموعة واحدة من الدرجات مع رتبة منخفضة فى مجموعة أخرى من الدرجات(ارتفاع معامل الذكاء، انخفاض الدرجات فى المقررات الدراسية)؛ وإذا كانت تتطابق مرتبة منخفضة فى المجموعة الأولى مع مرتبة منخفضة فى المجموعة الأخرى(انخفاض معامل الذكاء، وارتفاع الدرجات فى المقررات الدراسية)؛

ويوجد ارتباط ضئيل أو لا يوجد ارتباط ـ بصفة عامة ـ إذا كانت الدرجات المرتفعة فى مجموعة واحدة تتطابق تمامًا مع الدرجة المنخفضة أو المرتفعة فى المجموعة الأخرى.(فمثلًا من المحتمل أن يحصل الطلاب ذوو الدرجات المرتفعة فى معامل الذكاء على درجات مرتفعة أو منخفضة فى المقررات الدراسية).

وبقولٍ آخر؛ لا يسود تطابق مميز بين الرتب المرتفعة والرتب المنخفضة لمجموعات الدرجات. ولذلك تتوزع الارتباطات على متصل Continuum يمتد من الارتباط السالب التام، إلى عدم وجود ارتباط، إلى الارتباط الموجب التام .

(جـ) أهداف البحوث والدراسات الارتباطية :

تخدم الطرق الارتباطية عددًا من الأغراض المختلفة، فالباحثون الاجتماعيون وعلماء الاجتماع يجدونها نافعة ـ على وجه الخصوص ـ فى دراسات التنبؤ والسبب والأثر. ففى الدراسات التنبؤية غالبًا ما يسأل الباحثون لكى يجدوا وسيلة للتنبؤ بما إذا كان الطلاب، أو العاملون، سوف يكونون ناجحين فى العمل، أو فى ممارسة مهارات معينة، أو مادة من المواد. فمثلًا حينما يواجه مركزًا ما من مراكز البحوث والدراسات التربوية بمشكلة التنبؤ بالنجاح الدراسى، فإنه قد يصمم اختبارًا لقياس " الاستعداد الأكاديمى" ويطبقه على كل الطلاب الجدد الذين يلتحقون بالكليات فى الفرقة الأولى، وفى نهاية العام الجامعى الدراسى؛ قد يربط الباحثون بين درجات الطلاب على هذا الاختبار ومعدل درجاتهم التى حصلوا عليها فى المواد الدراسية المختلفة. فإذا كان هناك ارتباط موجب مرتفع بين المتغيرين ـ أعنى الاستعداد الأكاديمى، والدرجات فى المواد الدراسية المختلفة؛ وإذا كان هؤلاء الطلاب الذين طبق عليهم " اختبار الاستعداد الأكاديمى" يمثلون الطلاب الجدد المتتابعين، فقد يفترض الباحثون أن الاختبار سوف تكون له قيمة فى التنبؤ بالنجاح المدرسى للطلاب التاليين. ونتيجة لذلك، فإنهم قد يخططون لاستخدامه كأساس لانتقاء الطلاب وإرشادهم. ومن الطبيعى، أن هناك دائمًا الاحتمال بأن العلاقة التى توجد بين المتغيرات ترجع إلى مجرد الصدفة، أو إلى بعض العوامل غير المتعلقة بها .

أما فى البحوث والدراسات الارتباطية التى تحلل السبب والأثر، فقد تستخدم الطريقة الارتباطية على النحو التالى: لنفرض أن أحد الباحثين قرر بناءً على ملاحظاته للأفراد الذين يكتبون على الكمبيوتر أن مقدار الوقت الذى يُصرف فى النظر إلى النسخة التى يكتب منها هذا الفرد، ترتبط بسرعة الكتابة ارتباطًا عكسيًا بمعنى أنه كلما طالت فترات النظر إلى النسخة، قلت سرعة الكتابة. ولاختبار هذا الفرض، فإنه يتعين على هذا الباحث أن يقدم نفس النسخة لجميع الأفراد الذين يكتبون على الكمبيوتر فى إحدى الفرق الدراسية بمدرسة من المدارس. وبعد تسجيل سرعة الكتابة لكل فرد، ومقدار الوقت الذى صرفه فى النظر إلى النسخة، فإنه يقارن درجات السرعة بالوقت الذى يصرف فى النظر إلى النسخة، ويكتشف أنه يوجد ارتباط سالب مرتفع، بأنه ما ينجزه الفرد وقتًا ضئيلًا فى الكتابة، بقدر ما يصرف وقتًا أكبر فى النظر إلى النسخة التى ينقل منها. وهذا الارتباط، يقترح، ولكن لا يثبت بطريقة قاطعة أن الوقت الذى يُصرف فى النظر إلى النسخة يعد عاملًا مهمًا يتعلق بسرعة الكتابة على الكمبيوتر؛ ذلك أنه يقترح أن سرعة الكتابة قد تتحسن عن طريق إنقاص مقدار الوقت الذى يصرف فى النظر إلى النسخة .

تجدر الإشارة إلى أن الطرق الارتباطية تكون ذات قيمة فى تحليل السبب ـ الأثر؛ ولكنها تبين فى صورة كمية إلى أى حدٍ يرتبط متغيران: إنها لا تتضمن بالضرورة أنه توجد علاقة سبب ـ أثر. ويمكن التوصل إلى تفسير معنى العلاقة عن طريق التحليل المنطقى أكثر من التقدير الاحصائى .

(د) صعوبات تواجه البحوث والدراسات الارتباطية :

بداية، يتعين القول أنه فى جميع الأحوال، علينا أن نضع البحوث والدراسات الارتباطية فى سياقها الصحيح، أى أنها لا تتضمن علاقة سببية وإنما تتضمن فقط تغير اقترانى بين متغيرين. صحيحٌ أنه توجد فى الوقت الراهن محاولات لتوسيع أفق معامل الارتباط ليتضمن بعض المعانى السببية فيما يسمى بـ " تحليل المسار Path analysis" إلا أن الطرق الارتباطية تظل ـ بوجه عام ـ طرق غير سببية .

والشكل التالى يلخِّص الأنماط الرئيسية للبحوث الوصفية :

أنماط البحوث الوصفية

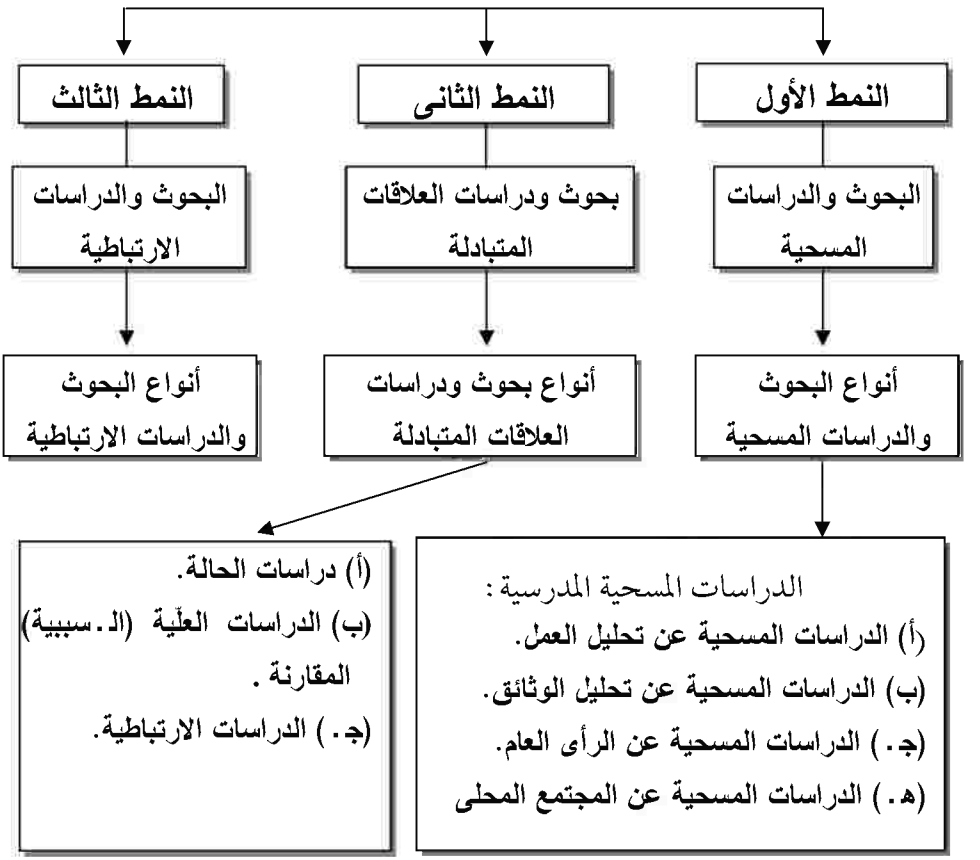

تقويم المنهج الوصفى :

إيجابيات المنهج الوصفى :

يقدم المنهج الوصفى فى البحث كثيرًا من الفوائد التى تفيد الباحث وغيره فى فهم مختلف الظاهرات الاجتماعية والإنسانية وذلك عن طريق ما يلى :

(١) تقديم حقائق ومعلومات وبيانات دقيقة عن واقع ظاهرةٍ ما أو حدثٍ ما أو شئ ما أو حالةٍ ما .

(٢) يقدم توضيحًا للعلاقات بين الظواهر المختلفة، كالعلاقة بين الأسباب والنتائج، والعلاقة بين الكل والجزء. بما يساعد الإنسان على فهم هذه الظواهر .

(٣) تقدم البحوث الوصفية تفسيرًا وتحليلًا للظواهر المختلفة بما يساعد الإنسان على فهم العوامل التى تؤثر على هذه الظواهر .

(٤) تساعد إلى حدٍ ما فى التنبؤ بمستقبل الظواهر المختلفة من خلال تقديم صورة عن معدل التغير السابق فى ظاهرةٍ ما بما يسمح للإنسان من التخطيط العام لبعض جوانب المستقبل .

و تبدو أهمية المنهج الوصفى فى أنه الأسلوب الأكثر استخدامًا والأكثر ملاءمة فى دراسة الظواهر الإنسانية والاجتماعية حيث يصعب إخضاع بعض هذه الظواهر للتجريب والاختبار فتبقى البحوث والدراسات الوصفية هى الأسلوب الوحيد لدراسة ظواهر عديدة مثل دراسة آثار سوء التغذية عند الأطفال أو السلوك الانفعالى للأطفال فى الأسرة المفككة وكثير من الظواهر الإنسانية والتربوية والاجتماعية المختلفة .

ولكن هل يمكن اعتبار المنهج الوصفى أسلوبًا علميًا؟

يرى بعض الباحثين أن البحوث والدراسات الوصفية هى أعمال علمية وليست بحوثًا بمعنى الكلمة لأنها تقدم وصفًا وتفسيرًا لواقع ما معين، ولكنها لا تتعمق للكشف عن الطريقة التى تؤثر بها العوامل المختلفة على ظاهرة ما أو الكشف عن مقدار تأثير كل عامل فى إحداث هذه الظاهرة كما يحدث عادةً فى البحوث التجريبية .

حدود المنهج الوصفى :

ويبالغ بعض الباحثين فى التقليل من أهمية البحوث والدراسات الوصفية وذلك استنادًا إلى الأسس التالية :

(١) يخشى من اعتماد الباحث على معلومات خاطئة نتيجة لأخطاء مقصودة أو غير مقصودة فى مصادر المعلومات سواء كانت مصادر بشرية أو مادية كالسجلات والآثار والوثائق. على أن هذا النقد يمكن أن يتضاءل كثيرًا إذا اهتم الباحث بفحص وثائقه فحصًا دقيقًا قبل أن يعتمدها .

(٢) توجد فرصة لتحيز الباحث فى جمع البيانات وميله إلى مصادر معينة تزوده بما يريد ويرغب لا بما هو حقيقى وذلك لأن الباحث يتعامل مع ظواهر اجتماعية وإنسانية غالباً ما يكون طرفًا فيها وهذا النقد يتضاءل أيضًا بوعى الباحث وموضوعيته .

(٣) أن جمع المعلومات فى البحوث والدراسات الوصفية غالبًا ما يتم عن طريق عدد من الأفراد الذين يساعدون الباحث فى هذه العملية وتتأثر عملية جمع المعلومات بتعدد الأشخاص الذين يجمعونها وبأساليبهم المختلفة فى الحصول عليها مما يجعلها عرضة للنقد وعدم الدقة .

وهذا النقد يتضاءل أيضًا إذا استطاع الباحث أن يدرِّب مساعديه على طريقة جمع المعلومات ويقنن أساليبهم فى البحث .

(٤) إن إثبات الفروض فى البحوث والدراسات الوصفية عملية صعبة وذلك لأنها تتم عن طريق الملاحظة وجمع المعلومات المؤيدة والمعارضة للفروض دون أن تتاح الفرصة لاستخدام التجربة فى إثبات هذه الفروض؛ فإثبات الفروض فى البحوث والدراسات الوصفية عن طريق الملاحظة يقلل من قدرة الباحث على اتخاذ القرار، فالباحث قد لا يستطيع ملاحظة كل العوامل أو يغفل بعضها أو لا يستطيع التوصل إلى إثباتات كافية أو شواهد كافية مما يعيقه عن إثبات فروضه أو نفيها .

(٥) أن البحوث والدراسات الوصفية غالبًا ما تناقش ظواهر محددة بزمان معين ومكان معين ومن الصعب تعميم نتائجها ذلك لأن هذه الظواهر تتغير من زمان إلى آخر ومن مكان إلى آخر .

(٦) أن قدرة الدراسات الوصفية على التنبؤ تبقى محدودة وذلك لصعوبة الظاهرة الاجتماعية وتعقدها وتعرضها لعوامل متعددة تؤثر على سرعة تطورها أو تغيرها .

على أن هذه الانتقادات لا تقلل من أهمية استخدام البحوث والدراسات الوصفية فى مختلف مجالات الظواهر الإنسانية حيث تبقى عملية وصف الظواهر

وتفسيرها هى الخطوة الأولى للوصول إلى العلم.(عبد الرحمن عدس وآخرون، ٢٠٠٤: ٣٠٢).

انتقادات توجه إلى المنهج الوصفى:

برغم ما يتمتع به البحث الوصفى من إيجابيات ومزايا، فإنه كغيره من البحوث لا يخلو من سلبيات، تتواتر الإشارة إليها، ومنها :

(١) صعوبة قياس بعض الخصائص التى تهم الباحثين فى مجال السلوك الإنسانى مثل سمات الشخصية، وصعوبة عزلها، ويمكن أن يرجع ذلك إلى عدم تطور المقاييس التى تستخدم فى القياس، أو فى خطوات تقنينها .

(٢) عدم الاتفاق على تحديد المصطلحات، ذلك أنه فى مجال البحوث والدراسات التربوية والنفسية والاجتماعية لم يزل هناك خلاف حول التوصل إلى مصطلحات محددة تلقى قبول الباحثين والدارسين وتجد الاتفاق التام بينهم، وذلك لاختلاف أطرهم النظرية وتنوع انتماءاتهم. ولذلك نجد الدارسين أو الباحثين يستخدمون نفس المصطلح ويقصدون به معانى مختلفة، من أمثلة ذلك مصطلح متفوق أو موهوب، ويترتب على ذلك قصور فى التفاهم، والتوصل إلى نتائج قد تبدو متعارضة، وهى فى حقيقتها تتناول جوانب مختلفة. ومن الحق أن نذكر أن تلك الصعوبة لا تقتصر على البحوث والدراسات الوصفية وحدها، ولكن هذه الصعوبة يعانى منها الباحثون المستخدمون لمناهج بحثية أخرى .

(٣) صعوبة فرض الفروض فى البحوث الوصفية، فمعظم البحوث الوصفية لا تستطيع أن تبدأ بفرض أو فروض؛ لأنها تبدأ دون أن يتوفر عن موضوع الدراسة مجموعة من الحقائق والنتائج الكافية التى تسندها نظريات معروفة يمكن أن يقوم عليها الفرض؛ ذلك أن هذه البحوث يمكن أن تكون فى الأساس مجرد دراسات استطلاعية، ومن ثم تكون مهمتها استكشاف الجوانب الغامضة فى الظاهرة موضع الدراسة بقصد التعرُّف على ملامحها وخصائصها؛ فهى تستهدف ـ إذًا ـ زيادة

رصيدنا العلمى؛ ولذلك يحدد الباحث أهدافًا له، أو قد يضع أسئلة تستغرق الاحتمالات الممكنة، أو جميع الحلول المتوقعة، وحتى حين يستخدم الباحث فى الدراسات الوصفية أسلوب فرض الفروض؛ فإن الملاحظ أن هذه الفروض لا ترقى من حيث الصياغة والدقة إلى ما نجده فى البحوث التجريبية(حسن عبد العال، ٢٠٠٤: ١٧٧).

(٤) صعوبة القياس الدقيق والتجريب؛ فكثير من الدراسات الوصفية تتم فى مواقف طبيعية فى حجرات الدراسة، أو فى القرى، أو فى المدن، أو فى الأندية وكثيرًا ما تعتمد على أكثر من فرد لجمع البيانات فى هذه المواقع؛ مما يعرض هذه البيانات لعوامل التحيز والخطأ، وكثيرًا ما تكون العينات كبيرة، وبالرغم من محاولات التزام الدقة، إلا أن عوامل الزمان والمكان، واختلاف ظروف الباحثين والمبحوثين قد تحول دون تحقيق المستوى الكافى من حيث ضبط المتغيرات. ومن هنا نجد أن غاية ما يمكن تحقيقه هو تحديد درجة من الارتباط بين متغيرين، أو أكثر، واستخدام الأساليب الإحصائية لتحقيق قدر من الضبط عند تحليل البيانات .

(٥) معظم البحوث الوصفية تعانى قصورًا فى استخلاص التعميمات والوصول إلى قوانين علمية عن الظواهر السلوكية. والبحوث الوصفية تستهدف حل مشكلات معاصرة فى زمان ومكان معينين. والظواهر التربوية والنفسية والاجتماعية ـ بوجه عام ـ تتغير من يوم لآخر، ومن مجتمع لآخر، بل قد تختلف فى داخل المجتمع الواحد، فهى ليست ثابتة ثبات الظواهر الطبيعية.(المرجع السابق: ١٧٨).

(٦) أن الباحث عند استخدامه لمنهج البحث الوصفى وخطواته يجرى دراسة على عينة ذات مواصفات يجتهد أن تكون ممثلة لمجتمع الأصل، وكثيرًا ما يعجز عن الحصول على عينة تمثل المجتمع كله(أو مجتمع الأصل) تمثيلًا صادقًا.

والشكل التالى يلخص أنواع البحوث الوصفِّية:

البحوث المسحية

يستخدم هذا النوع عندما يريد الباحث أن يتناول عددًا كبيرًا نسبيًا من الحالات (مدارس ـ تلاميذ ـ معلمون ـ وظائف ـ كتب... وما إلى ذلك). بقصد تشخيص أوضاعها، أو جوانب معينة من هذه الأوضاع، وهي أكثر البحوث الوصفية شيوعًا، وقد يقوم بها شخص، أو مجموعة، أو مؤسسة، ويُستعان فيها ببعض الأدوات، كالاختبارات، والمقابلات، والاستبيانات.

أنواعها: أربعة أنواع هي:

١- تحليل العمل: يستخدم عند توصيف المهام اللازمة للوظائف والأعمال التعليمية كوظيفة المعلم مثلًا أو الموجه، أو المدير... إلخ.

٢- تحليل المضمون: يركز على تحليل محتوى الوثائق المرتبطة بمجال التربية بشكل عام، ومن ذلك تحليل الكتب... مثل تحليل محتوى كتاب ما لمعرفة القيم التي يتضمنها.

٣- المسح التعليمي: يتناول جوانب العملية التعليمية المختلفة. التي تتصف بالعمومية، مثل تنظيم العملية التعليمية، والسياسية التعليمية لبلد ما. ونظم إدارة التعليم في هذا البلد.

٤- مسح الرأي العام: يهدف إلى تعرف رأي الشعب أو الجماهير في قضية معينة كأن يريد الباحث أو مجموعة من الباحثين معرفة رأي الجماهير في زيادة المرحلة الابتدائية عامًا دراسيًا واحدًا).

بحوث العلاقات:

ينظر إلى بحوث العلاقات على أنها تمثل مستوى متقدمًا من البحوث؛ تهدف إلى إيجاد نوعٍ من العلاقات بين البيانات والحقائق التي جمعها الباحث.

أنواعها: ثلاثة، هي:

١-دراسة الحالة: بحوث تقوم على دراسة جميع الجوانب المرتبطة بفرد، أو موقف، أو مؤسسة لهدف الكشف عن العلاقات السببية بين هذه الجوانب، ثم الوصول إلى تعميمات علمية ترتبط بهذا الفرد أو ذلك الموقف، أو تلك المؤسسة، وتستخدم دراسة الحالة في كثير من مواقف الحياة، كاختيار الصديق، أو الزوج، أو تشخيص الطبيب لمرضٍ ما، أو بحث حالات الأسر الفقيرة.

٢-البحوث السببية للمقارنة: تستخدم عندما يكون الهدف معرفة أسباب سلوك معين، بواسطة دراسة العلاقات السببية، التي يحتمل أن تكون قد أدت إلى هذا السلوك (فعلى سبيل المثال إذا أردنا دراسة أسباب التفوق الدراسي عند مجموعة من التلاميذ، يضع الباحث عدة فروض: كالمواظبة على الحضور، وإنجاز الواجبات المنزلية، والمشاركة في الأنشطة الحرة، وهنا يختار الباحث مجموعة من إحداهما متقدمة دراسيًا والأخرى متأخرة دراسيًا، ثم تقارن بينهما من حيث توفر أسباب التفوق، التي حددها؛ ليختبر صحة الفروض.

٣-الدراسات الارتباطية: تهدف إلى معرفة وجود علاقة بين متغيرين، أو عدم وجودها، والكشف عن طبيعة هذه العلاقة هل هي موجبة، أم سالبة؟ وهذا ما يميزها عن غيرها من الدراسات مثل الدراسات السببية المقارنة، حيث تبحث الدراسات السببية المقارنة في سبب الظاهرة فقط، وعادة ما يعبر عن العلاقات الارتباطية بمعامل الارتباط (س).

٣- البحوث النمائية (الارتقائية):

الهدف منها معرفة مدى النمو الذي يطرأ على عينة من العينات نحو موقفٍ معين بمرور الزمن.

وأنواعها أربعة:

١-الدراسات الطولية المستتبعة: يتم فيها تتبع عينة واحدة، من صف دراسي واحد، لهم خصائص وسمات وظروف واحدة، ثم نتبع نموهم -اللغوي- على سبيل المثال عبر سنوات الدراسة في المرحلة الابتدائية، وبمقارنة قدراتهم في كل صف بقدراتهم في الصفوف الأخرى، يمكن تحديد النمو والتطور الذي طرأ عليهم.

٢-الدراسات المستعرقة: وفيها يختار الباحث عينة من فئات عمرية مختلفة؛ للكشف عن النمو الذي حدث نتيجة مرور الزمن، ومن أمثلتها: أننا إذا أردنا قياس النمو في تعلم الرياضيات، الذي يحدث في المرحلة الابتدائية، أذنا عينة من كل صف، ثم نقيس قدرات التلاميذ في الرياضيات عبر سنوات الدراسة، وبالمقارنة بين هذه القدرات في كل من الصف الأول والصف يمكن تحديد النمو والتطور الذي طرأ في تعلم الرياضيات.

٣-الدراسات المستعرضة المتابعة: تقوم هذه الدراسات على أساس الجمع بين الطريقتين الطولية ((المتتبعية))، والمستعرضة في محاولة للإفادة من مميزات كل منهما.

٤-الدراسات عبر الحضارية (عبر الثقافية): وفيها تتم ملاحظة دراسة نمط سلوكي معين أو ممارسة معينة وملاحظتها لدى الأشخاص في الثقافات المختلفة، والمقارنة بينهم، كالمقارنة بين أساليب تنشيء ة الأطفال في عدة ثقافات، أو المقارنة بين أساليب علاجية مختلفة.

ثانيًا: المنهج التفسيرى:

سبقت الإشارة إلى أن الهدف الثانى من أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى فى العلوم التربوية والنفسية الاجتماعية هو الإجابة عن سؤال: لماذا؟ أى لماذا يحدث سلوك ما على النحو الذى يحدث به. وعلى ذلك يمكن القول أن هدف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى هى أن تتخطى مجرد وصف الظاهرات إلى تقديم تفسير لها. فالباحث لا يقنع تمامًا بتسمية الظاهرة، أو تصنيفها، أو وصفها، وإنما يذهب خطوة أبعد من ذلك فنجده يحاول أن يعرف أسباب وقوع الظاهرة.

فهدف الباحث هو أن يتخطى معرفة العوامل التى تفضى بها الملاحظة العابرة، لكى يبحث عن نمطٍ وراءها يفسرها. وبعد اكتشاف السبب المحتمل لوقوع الحدث، أو الحالة المعينة، يصوغ الباحث تعميمًا قابلًا للتحقيق يفسر كيف تعمل المتغيرات المتضمنة فى هذا الوضع، وهكذا يكون نتيجة عمله التفسير وليس مجرد الوصف.

إذًا، الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى لا تسعى إلى أن تعرف فقط ما هى الظاهرات، بل تريد أن تعرف أو تسعى أيضًا إلى أن تعرف كيف تحدث الظاهرات أو السلوكيات بهذا الشكل.

ولذلك يعتمد المنهج التفسيرى ـ فى جوهره ـ على تكوين شبكة من علاقات السبب والأثر. وبعض التفسيرات المبدئية؛ شأنها شأن الأوصاف المبدئية تنتمى إلى فئة الفروض التى يقترحها الباحث، ثم يختبرها فى ضوء البيانات التى يجمعها بالطرق الملائمة. فإذا تأكدت صحة الفرض، وتأيد ذلك من تكرارات عديدة لمحاولات بحثية قام بها باحثون مستقلون، ينتقل ـ أى الفرض ـ إلى مستوى القانون العلمى.

صحيح أن القوانين العلمية تتعدى حدود الملاحظة والإدراك الحسى، وحدود التصنيف معًا، إذ تبدأ القوانين العلمية حين يتم الربط بين مفهومين أو أكثر بعلاقة من نوع ما. وينشأ عن ذلك تكوين ما يسمى المبادئ أو التعميمات أو القواعد.

ويذكر " فؤاد أبو حطب وآمال صادق "(١٩٩٦: ١٠٩) أنه نظرًا إلى أن قوانين العلم قوانين تفسيرية؛ فإنها فى جميع الأحوال تتضمن قدرًا من الخطأ، سواء كانت هذه القوانين لا سببية(عاملية) أو سببية(شرطية أو علّية).

فبالنسبة للقوانين اللا سببية ـ العاملية ـ حين تُستخدم فى أغراض التحكم والتنبؤ، قد تدخل عليها بعض التعديلات التى تتضمن مكونات سببية لم تكن فيها. وفيها تتم المعالجة ـ فى بعض المتغيرات المرتبطة بالقانون موضع الاهتمام، بشرط أن تكون العلاقة واضحة، وتكون مجموعة المتغيرات تحت المعالجة التجريبية من قبيل " الأسباب "، فإذا تغيرت قيمتها بطريقة معينة ينتج أثر معين على نحوٍ ثابت، وبطريقة متميزة دون إحداث تأثير له قيمته فى " السبب ."

إلا أن هذا لا يكفى من وجهة نظر " أبو حطب وصادق "(المرجع السابق) للقول بأن القانون اللا سببى أصبح يعبِّر عن علاقة سببية إلا إذا كانت العلاقة ذات اتجاه واحد Unidirectional وليست من النوع الذى يمكن قلبه أو عكسه Reversal(أى علاقة ذات اتجاهين). فإذا عولج الأثر على أنه " سبب " وأدى إلى نتيجة مختلفة؛ كانت العلاقة من النوع الأول(أى علاقة ذات اتجاه واحد)؛ أما إذا أدت هذه المعالجة إلى نفس النتيجة ظلت العلاقة من النوع الثانى،(أى علاقة ذات اتجاهين).

أما بالنسبة للقوانين السببية(الشرطية أو العلّية)؛ فهى نادرة فى العلوم النفسية والتربوية والاجتماعية، وهناك قوانين أكثر ندرة هى القوانين العلية .Causal ذلك أن معظم تلك البحوث ـ وفى حدود إمكانات الباحثين البشرية والوسائل المتاحة لهم فى الحصول على المعرفة، ووسائل البحث والاكتشاف، لا تتعدى حدود العلاقات الشرطية(أى تحديد الأسباب الضرورية) أما صياغة العلاقات العلّية(أى تحديد الأسباب الكافية) فهى تتعدى حدود الإمكانات البشرية .

ثالثًا: المنهج التحكمى:

الهدف الثالث من أهداف الدراسة العلمية للسلوك الإنسانى فى العلوم التربوية والنفسية والاجتماعية هو السعى نحو التحكم فيه ـ أى التحكم فى هذا السلوك ـ

حتى يمكن ضبطه وتوجيهه والتنبؤ به، والضبط هنا يعنى عملية التحكم فى بعض العوامل الأساسية التى تسبب حدثًا ما لكى تجعل ذلك الحدث يتم أو تمنع وقوعه، ولا يمكن أن تصل البحوث العلمية إلى تحقيق هذا الهدف إلا بعد المرور بالمرحلتين السابقتين ألا وهما الوصف الجيد لظواهر هذا السلوك، ثم التفسير الدقيق الصحيح لها من خلال تحديد العوامل المؤثرة فيها .

"ولعل هذا الهدف يقودنا إلى مهمة عاجلة للعلوم الإنسانية وهى مهمة الرعاية والمساعدة من أجل التوجيه والتحكم والضبط لسلوك الإنسان. فالمتخصص فى علم النفس وفى علم الاجتماع يريد أن يقدم المعرفة للجميع، وهو لا يستطيع ذلك إلا إذا توفر له من الفهم من خلال الوصف والقدرة على التعليل من خلال التفسير ما يمكنه من اقتراح نوع الرعاية المناسبة ".(فؤاد أبو حطب وآمال صادق، ١٩٩٦: ١١٠ ـ ١١١).

ويقرر كل من " فؤاد أبو حطب، وسيد عثمان، وآمال صادق "(١٩٨٧) أن بحوث التقويم[1] تنتمى فى جوهرها إلى هذا المنهج التحكمى. والدليل على ذلك أن يكون الهدف من البحث الحكم على الظاهرة موضوع البحث فى ضوء محكات معينة؛ كمدى تحقيق هذه الظاهرة لأهدافها(كالخطة الخمسية فى الإقتصاد، أو منهج المدرسة الابتدائية فى التربية) أو مدى الفائدة الاجتماعية لها، أو نطاق مرغوبيتها، أو درجة فعاليتها وإنتاجيتها. وبالطبع لا يكون البحث تقويميًا كاملًا إلا إذا أضاف إلى الحكم على الظاهرة الإجراءات العملية التى يمكن إجراؤها لتحسين الظروف التى تهيئ للظاهرة أفضل السبل للوصول إلى المحك المختار فى تقويمها. أما إذا اقتصر

---

(١) بحوث التقويم Evaluation research

تطبيق المبادئ العلمية، والطرق والنظريات للتعرُّف على العوامل المهمة فى توفير برامج الخدمات الاجتماعية والتربوية والعلاجية وغيرها من البرامج التطبيقية الفعالة، ووصفها وتطورها وقياسها والتنبؤ بها وتغييرها وضبطها . ومما يجدر ذكره أن بحوث التقويم أحد الأقسام الجديدة فى رابطة علم النفس الأمريكية APA .

البحث على مجرد الحكم على مدى توفر محك معين فى الظاهرة، فإن البحث ـ حينئذٍ لا يتعدى مستوى التقييم .Evaluation

ومنذ وقت طويل يحاول الباحثون فى الميادين التربوية والنفسية والاجتماعية البحث فى المهارات والاستعدادات التى تؤدى إلى النجاح فى المهن المختلفة. وهم يأملون أن يؤدى الفهم الكافى للشروط اللازمة للنجاح فى هذه المهن، إلى أن يصبح من الممكن تطبيق اختبارات للاستعدادات تتنبأ بمستوى أداء الفرد فى عمل معين. فإذا استطعنا أن نحصل على مثل هذه المعرفة، واستطعنا أن نصدر تنبؤات على درجة كافية من الدقة، سوف يمنع التوجيه المهنى الجيد بعض الناس من أن يحاولوا إقحام أنفسهم فى أعمالٍ لا تلائمهم، ولن ينجحوا فيها، وتستطيع الأمة أن تزيد استغلالها للطاقات الإنسانية المتوفرة فى المجتمع، بضبط عمليات انتقاء الطلاب للدراسة فى كافة المجالات، عن طريق تطبيق اختبارات للإستعدادات.

(فان دالين، ١٩٩٠: ٧٣).